

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01032 2414

Library of
The American University
at Cairo



Presented by

Author



ID: 5646

5-1

مازن الحسینی

کتابخانه ملی
الایران
موزه خاندان قاجاری
AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CATHOLIC

حانه الماسینی
کتابخانه

الشعر وقصص أخرى

PG
3219
A7
H97

- دستویفسکی
- تشیخوف
- سیمنوف
- جورکی
- تزفسکی
- کوبرین
- شبانوف

عیون القصص العالمی

- ۱ -

دارالثناء للطباعة

ابراهیم محمد عیسی

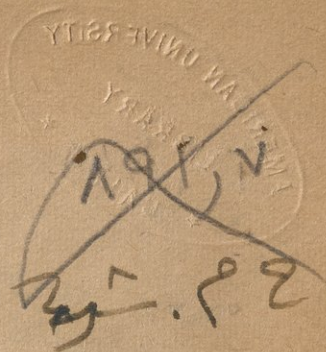
شارع الجیش ت : ۴۳۸۹۲

OCLC
1084245298

892.73

H 963

author



B13208524
15055474

191, V

م.ع. ش

31620

دار النشر المصرية

الصداء

أماء...

أتذكرين أريجاً وحرها؟ أتذكرين أيام التعاسة
والبؤس؟...

لقد ناضلت كثيراً.. فكأفحت الجوع والحرمان..
ومع ذلك لم تسلك عزيمة.. ولم تهين إرادتك..
وانتصرت...

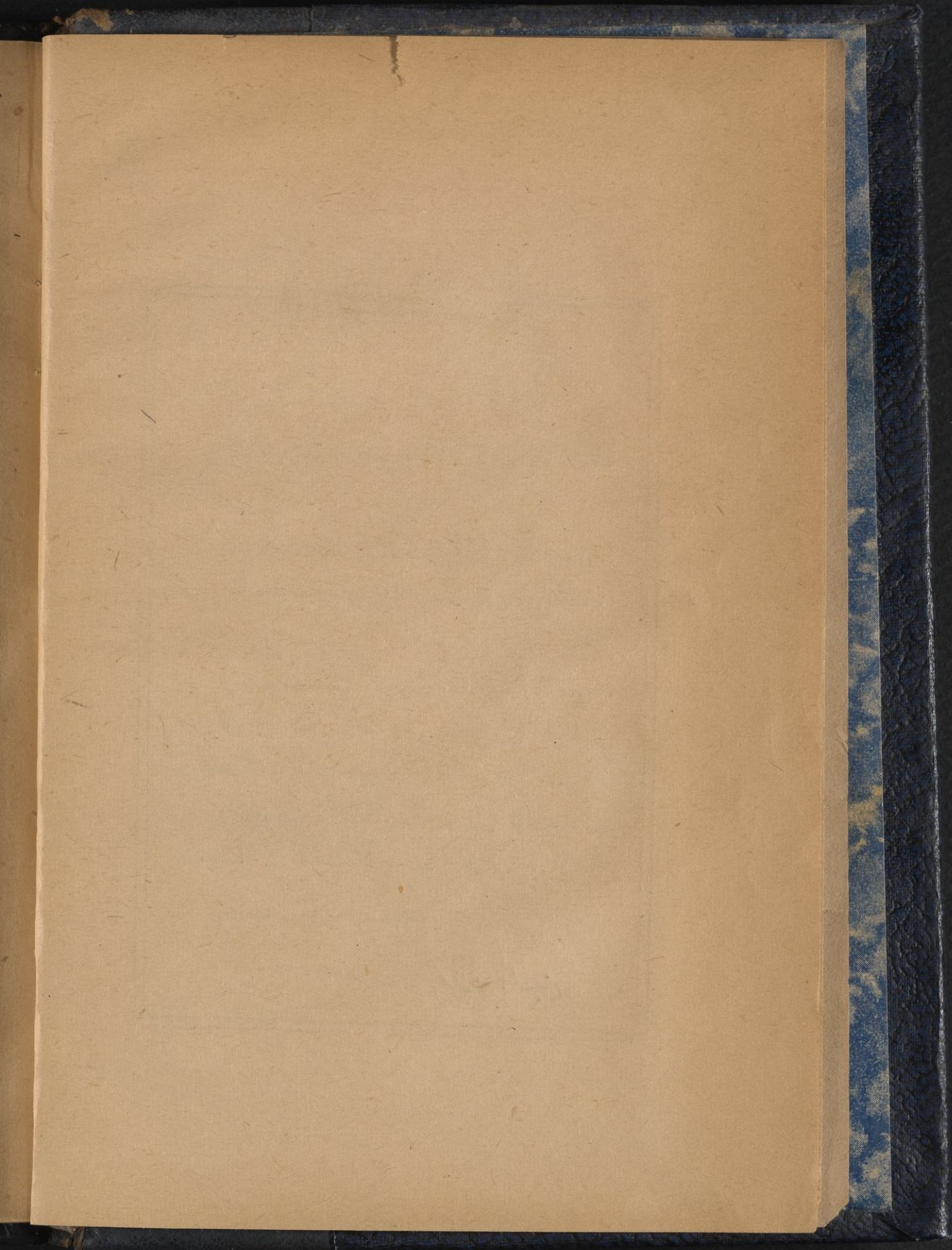
فرييت أطفالك.. بالعرق والدموع والدماء..
وفي كل حين كننا نسألك: متى سنصل إلى الحياة التي
نريدها؟... كنت تجيبين: غداً... غداً...

فرييت فينا الأمل... والإيمان بالفجر..
بالمستقبل... فأليك أقدم هذا الكتاب...

إنه بعض من تجارب البشر!

مازنة الحسيني

Miss Shi the author of



دراسات في الأدب الروسي

أرى لزاما على وأنا أحاول تتبع تطور القصة الروسية أن أتبع تاريخ تطور الأدب الروسي ، لأن القصة طريقة من طرق التعبير الفني وفروع من فروع الأدب .

ولكننا لا نستطيع تعقب تاريخ الأدب الروسي من غير أن نتعرض لأحداث التاريخ التي مرت بها روسيا وتحليل هذه الأحداث وفهم ما تنطوي عليه من إمكانيات تطور أو جمود للأدب .

فالأدب في مفهومه العلمي الواقعي الصحيح ما هو إلا تعبير اجتماعي ، بل هو التعبير الدقيق الواعي الذي يسجل مدى ما تطورت إليه هذه الحياة في طريق الوعي والتقدم والنهوض السياسي والفكري والاجتماعي والثقافي ، أو في طريق الجمود والرجعية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية . . . ولكنه ليس مجرد تسجيل أو تعبير . ولا هو مجرد تصوير أو تأريخ ، بل هو انعكاس لأحداث هذا التاريخ ، انعكاس واع لا يتوخى مجرد تصوير الواقع ، بل تصوير ما يجب أن يكون عليه هذا الواقع في الصورة الأرقى ، أو في صورته المثلى . وهو انعكاس للصراع المستمر بين قوى المجتمع المتضادة ، بين قوة نامية متطورة ، وأخرى جامدة في طريق الزوال .

وبما أننا قد وصلنا إلى هذا التعريف الواعي والمفهوم الصحيح للأدب ، فيجب علينا أن نحاول تطبيقه على تطور الأدب في روسيا ، وتحليله في هذه الحدود لا غير ، حدود النظرة العلمية للتاريخ ، وفهم التاريخ

على أنه ليس مجرد تراكم عرضي للأحداث ، أو بطولات فردية ، أو معبدآ
من معابد عبادة الأبطال ، بل هو عبارة عن تاريخ الجماعات والشعوب
التي تكافح في سبيل حياة أفضل وفي سبيل الوصول إلى أرقى نتاج في
العقل البشرى .

وستسترعى انتباهنا ، ونحن بصدد تتبع تطور هذا الأدب ، حقيقة
قررها نقاد الأدب في الشرق والغرب ، واعترف بها أئمة الثقافة العالمية
ألا وهي : تمخض الحضارة الإنسانية التي توصل إليها الإنسان خلال
ستين قرنا من الزمن ، عن أربعة آداب عالمية : الأدب الإغريقي ،
والانجليزي ، والفرنسي ، والروسي . والمقارن لهذه الآداب لن يتردد
في القول بأن الأدب الروسي هو أعظم هذه الآداب قاطبة ، وأعلى الأقل
في رأى كاتب هذه المقدمة ، أعظمها في تعدد حقول دراساته وتحليله ،
أعظمها في عمقه ووعيه وبساطته ، أعظمها في تصويره الدقيق لمتناقضات
مجتمعه ونفسية الشعب الروسي وآلامه وآماله .

والأدب الروسي من أحدث الآداب العالمية . فتاريخه لا يتعدى
قرنين مضيا من الزمن . هذا إذا أردنا أن نقصر تعريفنا للأدب على
التعابير الفنية من أقاصيص وقصائد ومسرحيات . أما إذا أردنا أن
نعم كلمة أدب ونجمل تحت لوائها « مطبوعات ، الحكومة ورسائل
الكنيسة ، فيجدر بنا أن نرجع بتاريخه إلى القرن العاشر بعد الميلاد :

لم يكن الأدب الروسي في ذلك الوقت أدبا بكل ما للكلمة من معنى ،
بل كان عبارة عن رسائل هزيلة وصلوات عقيمة تصدرها الكنيسة
المهيمنة على جميع مرافق الحياة ، والتي كانت تحارب كل محاولة لأشغال
أى بصيص من النور خوفا على أكدهاس الظلام المتراكم والتي تستمد منه

سلطانها . فانتشر الجهل واقتصرت الثقافة على رجال الكنيسة وخدم
الذين كانوا يستغلون جهل الشعب فيعيشون في وفرة من العيش ، بينما
الملايين من أبناء روسيا كانت تتضور جوعا . وأصدق ما يوصف به
حال الكنيسة والشعب هو قول الشاعر الجاهل الأعشى في وصف
ارستقراطي مكة وصعاليكها :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى بيتن خمائصا

واستمرت هذه الحال إلى أواخر القرن الثامن عشر ، حين ظهرت
طلائع الأدب غير الكنائسي . ولم تعد هذه الحركة الأدبية عدة قصائد
تملق ومدح للقيصر ، وتمجيد لعظمته وغزواته البربرية وكان ذلك
طبيعيا لسيطرة الاقطاع والكنيسة على الأدب والثقافة وتوجيههما
توجيها خاطئا ، يمجدا لالسياد ويتغنى بعظمتهم ، ويجعل من طغيانهم
نعمة ، ومن قسوتهم كرما . وظهرت في هذه الفترة اليوميات التاريخية
والاساطير الشعبية . وقد أفلحت سيطرة الاقطاع والكنيسة في تحطيم
كل محاولة لخلق أدب ينادى بتحرير الفلاح الروسي من نير القنانه .
ووصف أحد الكتاب الفرنسيين الحالة في روسيا في ذلك العهد فقال
« روسيا بلد عجيب ، ربع يملك ، وثلاثة أرباع تكدح وتعمل في
عبودية القيد » . وانتشرت في هذه الفترة قصص تضليلية مصدرها
الكنيسة تصف القيصر « بالأب الأصغر » و « بظل الله في الأرض » ،
وبقي الأدب الروسي يرسف في أغلال عبودية الكنيسة إلى أواخر
القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

وكانت الثورة الصناعية قد عمت بلدان أوروبا الكبرى في هذه
المرحلة . وارتفعت أصوات البورجوازية الأوروبية تطالب بديمقراطية

برلمانية . فترددت صدى هذه الأحداث في روسيا ، وظهرت فيما بعد طبقة من المفكرين تطالب بتصنيع روسيا ووضع حد للنظام الاقطاعي وتحرير الأفتان . وفعلا قامت في هذه المرحلة عدة ثورات بين الأفتان تطالب بحريتهم .

وكان طبيعيا أن يتردد صدى هذه الأحداث في نفس الأدباء الروس فظهرت طلائع الأدب الروسي الحديث . إلا أن هذه الطلائع اتجهت اتجاهها رمزيا خوفا من تعسف القيصر وطفئانه ، فظهر شعراء مثل جبريل روما نوفيتش ديرجافين (١٧٤٣ - ١٨١٦) يصورون حالة روسيا على ألسنة الحيوان ، أو عن طريق وصف أحوال الحيوانات . وفي أواخر القرن الثامن عشر أصدر الشاعر المذكور قصيدته « شكوى » التي يقول فيها :

« اصطادوا عصفورا مفردا

« ووضعوه في قفص خشبي صغير

« وناح العصفور بدلا من أن يغرد

ولسكنهم تابعوه قائلين : غرد أيها العصفور ، غرد... »

وكان ديرجافين في هذه القصيدة كان يصور الحالة التي وصل إليها الشعب الروسي الراسف في الأغلال ؛ مكتم الفهم مشلول الإرادة . وارتفعت أصوات الفلاحين مطالبة بالتححر أكثر فأكثر ؛ فظهرت تبعا لذلك اتجاهات أدبية جديدة في روسيا بعد أن مل الأدباء لغة الرمزية التي عجزت عن التعبير عما يحول في صدورهم من ثورة وأسى وحزن ؛ واصطبغت هذه الاتجاهات بالصبغة الرومانطيقية .

وكان أول طلائعها الشاعر فاسيلي أندريفيتش جو كوفسكى (١٧٨٣ -
١٨٥٣) الذى يتحسر فى قصيدته « الذكرى » على رفاقه الذين مضوا
إلى المشانق وإلى مجاهل سيبيريا . وبين هذا التحسر تجد روحا من الأمل
والإيمان بالمستقبل فتراه يقول :

« لاتقل عن رفاقنا الأحباء الذين حببوا إلينا

« بصدقتهم عالم العرق والكفاح

« لاتقل : أنهم ليسوا هنا

« بل قل : لقد كانوا هنا ... »

ويجب ألا يغيب عن ذهننا ونحن بصدد الحديث عن الرومانطيقية
ذكر شاعر روسيا العظيم الكسندر سرجيفيتش بوشكين (١٧٩٩ -
١٨٣٧) الذى خلد فى شعره ثورة « الديسمبريين » تلك المحاولة العظيمة
التي قام بها الشعب الروسى فى ٢٦ ديسمبر عام ١٨٢٥ لتحطيم قوى الاقطاع
والرجعية . ولكنها باءت بالفشل .

وتوالت رياح الرومانطيقية على روسيا ؛ ولكنها لم تكن رياح
رومانطيقية تؤمن « بالفن من أجل الفن » ذلك المفهوم الذى يتعارض
كلية مع مفهوم الكتاب الروس عن رسالة الأديب والفنان الاجتماعية
ومع دعائم الأدب الروسى التى تقوم على أسس إنسانية ديمقراطية ؛ بل
كانت طريقة من طرق التعبير الفنى عن أحاسيس الكتاب الذين
هزت مشاعرهم رؤية أكبر رؤوس روسيا فى الأدب والنقد والشعر
ينفون إلى مجاهل سيبيريا ؛ أو يساقون مكبلين بالأغلال إلى المشانق .
وقد كان لسيطرة الكنيسة والاقطاع أثر كبير فى ازدهار الرومانطيقية
ونموها ؛ لأنها أرادا استغلالها فى تحطيم كل مبدأ جديد ينمو لتمجيد
العلم والنزعة الواقعية .

ولكن هدفهم هذا لم يتحقق ، لتسلل مبادئ الثورة الفرنسية في
مستهل القرن التاسع عشر إلى روسيا عن طريق البعثات الروسية التي
كانت تعود من فرنسا لتتكلّم عن فولتير وروسو . وعن الحرية والاخاء
والمساواة . ووجدت هذه الثورة هوى في نفوس الروس المتعطشين إلى
التحرر من نير الاقطاع ومن طغيان القيصر والكنيسة ؛ وشجع ذلك
الطبقة البورجوازية النامية ، وتجاوب الأدب الروسى مع هذا التعطش
وظهر جيل جديد من الكتاب يؤمن بالواقعية ، أمثال نيقولاى
فاسيليفيتش جوجول (١٨٠٩ — ١٨٥٢) وقد تضاربت الآراء حول
مكانة جوجول فى الأدب الروسى ، فقال البعض أن الأدب الروسى
الحديث ، وعلى ما أظن هذا هو الأرجح ، يبتدىء من قصة « المعطف »
لجوجول . وقال دستوفسكى فى ذلك : « كلنا ننحدر من « معطف »
جوجول » وقال البعض الآخر أن جوجول مرحلة المرور من
الرومانطيقية الى الواقعية .

وفى هذه المرحلة ، وللمرة الأولى فى تاريخ الأدب الروسى راح
يبتعد عن تقاليده الانسانية والديمقراطية . فاجتاحت أكثر مبادئ
الفكر والفن رجعية ، أمثال الرمزية والصوفية وسيطر إلى حين
مبدأ « الفن من أجل الفن » تشجعه العناصر الرأسمالية والنقاد
البورجوازيون والصحافة الصفراء ، وذلك ليحطموا الاتجاه الجديد
القوى الذى برز فى الأدب الروسى ، اتجاه تصوير الواقع ومعالجة
الأمر معالجة علمية صرفه محدودة بحدود النظرة العلمية للتاريخ .

وتسربت فى هذه الآونة روح التشاؤم التقليديّة فى الأدب الروسى
ولم ينبج من هذه الحركة الرجعية إلا تولستوى وكورنسكو وحدهما .

إلا أن تولستوى عاد في أواخر حياته فتأثر بالصوفية ومات صوفياً .

وتغلغت الرأسمالية في هذه الآونة ، أى في أواخر القرن التاسع عشر ؛ في جميع مرافق الحياة الروسية ، فتحزر الألقان ، وتخلت البورجوازية عن شعاراتها التقدمية التي كانت تطالب بها من قبل ، وأصبحت من أكثر الطبقات رجعية وجموداً وسنداً قوياً للقيصر في تعسفه وطمغانه وفي كلمة واحدة كان الجو ثقيلًا ، مرهقًا ، قاسيًا . فالرجعية قد انتصرت وتغنى أذنانها بهذا الانتصار في وقاحة وشماتة . وآثر كل ذى فكر جيد صالح الانطواء على نفسه بعد أن تخيل أن لا طائل من وراء الجهاد في سبيل أفكاره . فازداد التشاؤم والانحلال والانهار . وظهر كتاب مثل دستوفسكى (١٨٢١ — ١٨٨١) يرسمون شخصيات معذبة ، مريضة ، تثقل كاهلها مشكلة الشر ، فلا تجد لها خلاصاً إلا في المسيحية .

ولم تختلف شخصيات جارشين (١٨٥٥ — ١٨٨٨) عن شخصيات دستوفسكى إلا في كونها لا تجد لها خلاصاً حتى ولا في المسيحية ، فهي لا تعرف سبباً لحياتها ، وتموت فلا تدري سبباً لموتها . وينغمس جارشين في الرومانطيقية المشوبة ببعض من الرمزية فيصور لنا النباتات والحيوانات على أنها تتعذب . صورة قائمة سوداء ، يغمر فيها الأسى والألم الكون بأسره . والناس يسعون إلى اقتلاع جذور هذا الشر ، ولكن عبثاً يجاهدون ، فالشر أقوى جذوراً من البشر .

ولم يختلف أنطون بافلوفيتش تشيخوف (١٨٦٠ — ١٩٠٤) عن جارشين في شيء سوى تخلصه من الرمزية والرومانطيقية . فهو

يرسم صوراً كاملة واقعية لمجتمعهم ، ولكنها صور مليئة بالكآبة والأسى
فالفلاح في نظره انسان بائس دمرته الحنر ، يؤمن بالسخافات والباطيل
والمثقف البورجوازي أناني ، مادي إلى أبعد حدود المادية الانانية ،
حياته تافهة حقيرة . ونبلاؤه قوم متفسخون ، مضى عهدهم ؛ ولا يرجى
منهم أى خلاص لهذا المجتمع . أما أفراد الطبقة البورجوازية الصغيرة
التي يصفها تشيخوف دائماً ، وغالباً يجد أبطاله ينتمون إليها ، فحياتهم
محدودة ، وتفكيرهم محدود رتيب ليس فيه أى مكان للشل العليا ،
همهم الأوحده جمع المال . وهكذا تتابع شخصيات تشيخوف ، شخصيات
أرهقتها الحياة والبؤس ، وفي الغالب شخصيات أنانية فردية لا تعرف
معنى الأخوة والتضامن ، « اعتصرتها قبضة الحياة اليومية التي لا يستطيع
أى مثل أعلى وأية عاطفة مجردة مقاومة لها . » وهكذا تفوح من
مؤلفات تشيخوف رائحة التشاؤم والاستسلام للبصير المحتوم .

أما أبطال فيودور سولوجوب (١٨٦٣ - ١٩٢٧) فإنهم يكرهون
الحياة ، ويسعون وراء الخلاص منها ، والذين يتركهم سولوجوب
يعيشون ، أو يريدون الحياة ، فتجدهم أقرب الى الأشباح منهم إلى
البشر . فالحياة في نظره ما هي الى ملل ، وفودكا ، وفضائح ،
وبأس ، وتفاهة .

وفي وسط هذا الجو الخانق ، وهذه القسوة والطغيان . . والمعركة
المستعرة بين قوى الرجعية التي توازر أدب الانحلال والتشاؤم وقوى
التطور والتقدم التي تنادى بأدب الحياة ، الأدب الواقعي الصحيح ،
جاء مكسيم جوركي (١٨٦٨ - ١٩٣٦) . . . جاء ليقول : « لقد قدمت
إلى هذا العالم كي أختلف معه . » واختلف الفتى المتشرد مع العالم .

اختلف مع اليأس والجمود والرجعية فاطلق صيحته ضد الانحلال والتشاؤم مردداً صدى صيحات الكفاح التي أصدرتها الطبقة العاملة النامية التي تريد لها مكاناً تحت الشمس . ورسم جوركي طريق الخلاص التي وصفها بقوله : « وجدت طريق الخلاص في التأمل الشخصي والعمل الثوري » .

وأحدث جوركي ثورة في عالم الأدب ومفهومه ، وحقق للثورة الأولى - في تاريخ الإنسانية - في أروع صورة وأكملها دور الأديب الاجتماعي كما يجب أن يكون . وقد اختار هذا الطريق لتأكيد ، كما يقول نيودور درايزر ، من إمكانية التوحيد بين حل كل مسألة علمية خاصة مع الحل العلمي للمشكلة الاجتماعية . « وعرفت روسيا على يد جوركي الواقعية الأدبية الاشتراكية .

وأتت أفكار فولتير وروسو وثورات عام ١٨٤٨ البورجوازية الديمقراطية في أوروبا ثمارها في روسيا عام ١٩٠٥ ، فاندلعت نيران الثورة بعد هزيمة روسيا في الحرب الروسية اليابانية ، تطالب بالحرية والحزب تحت قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي . ودامت الثورة ستة أشهر أخذت بعدها بالرصاص والبنادق والمشاق .

وأخرج جوركي بعد فشل هذه الثورة كتاب « الأم » عام ١٩٠٦ . وكان سجلاً حافلاً لتاريخ الثورة ولكفاح الطبقة العاملة الصاعدة النامية . وأكثر من هذا أيضاً ، كان قوة تبعث الايمان في النفوس من جديد ، وتنير آفاق المستقبل ، وتجند للنضال من جديد القوى المبعثرة بعد أن فشلت الثورة وأصبحت الموجة الثورية في انكماش وجزر وابتدأ اليأس يدب في قلوب الكثيرين .

وتتالت قصص جوركي ، قصصاً تصور الحياة المريرة التعسة وتبعث
من حناياها روح الأمل والایمان فی المستقبل . ولقى جوركي ، كما لقي
غيره ، جميع أصناف المقاومة والاضطهاد من قبل الحكومة . فما كان هذا
إلا ليزید القوى المتقدمة قوة فی معركتها ضد الأدب التشاؤمی المنحل
و ضد الرمزية والصوفية . وانتصر جوركي ومبدؤه على الرجعية . . .
الرجعية الفكرية والاقتصادية والسياسية .

ففي عام ١٩١٧ — بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى —
هبت روسيا عن بكرة أبيها تطرد القيصر وتضع حداً لحكومته الطاغية
وتؤسس أول دولة للعمال والفلاحين عرفها التاريخ . . .

وتغنى الأدباء بالثورة وعاد من هرب منهم إلى الخارج خوفاً من
بطش بوليس القيصر السياسي ومشانقه . . وتحطم كل أثر من آثار
الرومانطيقية والرمزية والصوفية ، واتخذ الأدب صفة جديدة ، صفة
الواقعية الاشتراكية . . . أو الأدب البروليتاوى . . .

وتوالى على روسيا جيل من الكتاب يؤمن بجوركي ويتتبع خطاه
فيرسم الطريق لكل من يحب الإنسانية ويؤمن بها . وكان أفرتشينكو ،
وسر جيف تزنسكى ، وشبانوف ، والكسى تولستوى ؛ وأنا أخموتوفا ،
وكيريلوف ، وإيليا أهرنبورغ وغيرهم كثيرون . . .

وها أنت ذا ترى الآن أيها القارئ أن الأدب الروسى ، رغم حداته
فتاريخه لا يتعدى قرنين من الزمن ، هو أروع الآداب العالمية قاطبة
وأقواها وأغزرها مادة وتحليلاً . فالأدب الروسى لم يعرف الرجعية
الفكرية التى تكفر بالإنسان ، كما عرفتھا الآداب الأوربية كالآداب
الفرنسى مثلاً ، فهو دوماً متصف بالإنسانية والديمقراطية .

وإذ أضع الآن بين يديك هذه المجموعة من القصص التي تمثل تطور
القصة الروسية في جميع مراحلها الحديثة ، من دستويفسكي حتى عصرنا
هذا ، آمل أن أكون قد حققت ما أصبو إليه من تنمية الثروة الانسانية
في المكتبة العربية التي تزخر في هذه الآونة الحرجة من تاريخنا ، تاريخ
الكفاح من أجل التحرر والانطلاق وتحطيم سيادة الأمر المطلق ، بالأدب
العقيم المبني على قواعد اللف والدوران والألفاظ المزخرفة المنمقة .
وإني لعلّي يقين بأن هذا الكتاب سيجد مقامه اللائق ، الذي وجده
كتابه العظام في نفوس الشعب الروسي ، سيجد مقامه اللائق في النفوس
التي تحب الانسانية وتدافع عنها .

مازله الحسيني



س . ت سيمنوف

الشريد

س . ت . سيمنوف

لست أجد وصفاً لسيمنوف أصدق من كلمات الناقد الأميركي توماس سيلتزر : « إن سيمنوف شخصية فذة وفريدة من نوعها في تاريخ الأدب الروسي ، فهذا الفلاح الذي لم يتمكن من قوانين القراءة والكتابة ولم يلم بأي جانب من جوانب الأدب ، أمسك القلم ليخط أولى قصصه التي أعجب بها كاتب روسيا الكبير — في ذلك الحين — ليوتولستوى . » وسيمنوف من أئمة القصة القصيرة الروسية ، ورائد من رواد الأدب الواقعي . توطدت بينه وبين تولستوى أواصر الصداقة ، بعد أن اطلع الكاتب الكبير على أولى قصص سيمنوف فشجعه وبث فيه روح الثوره والإيمان بالمستقبل .

إلا أن سيمنوف ، في جميع مراحل حياته ، ظل وفيًا لمبدأ « الفن في سبيل الحياة » . فلم تسيطر عليه مبادئ الفن الرجعية أمثال الصوفية والرمزية ، كما سيطرت على صديقه تولستوى في أواخر حياته .

وجميع قصص سيمنوف تتحدث عن الفلاح الروسي الذي هدّه الفقر وكادت تحطمه الاقطاعية ؛ أو عن الفلاح الروسي الذي ضل الطريق في المدن الصناعية الكبرى وكاد يجرفه تيار الانحلال والفساد . إلا أنه يبعث الأمل والإيمان من حنايا هذه الأوضاع النعيسة . فدأماً ترى النصر في قصصه للخير الذي يصارع الشر صراعاً طويلاً ممتاً . وتغلب على سيمنوف في جميع قصصه روح البساطة والواقعية الممتلئة بالحياة .

الشَّرِيد . . . !

عاد جراسيم إلى موسكو قبل عيد الميلاد بفترة قصيرة حيث تتأزم الحالة ويصعب على أى إنسان أن يجد عمل مهما كان نوعه . وفى هذه الفترة يتمسك العمال بأعمالهم طمعاً فى هدية صغيره يمنحها لهم صاحب العمل . أمضى جراسيم ثلاثة أسابيع حفيت خلالها قدميه بحثاً عن عمل - ولكن من غير جدوى .

وكان قد حل ضيفاً ، عند عودته من القرية ، على بعض أصدقائه ومعارفه ، ومع أن الجوع والحاجة لم ينشبا مخالبهما فيه بعد ، إلا أنه تألم كثيراً لوجود شخص قوى البنية سليم الجسم مثله متعطلاً ، لا يجد عملاً . وجراسيم يعيش فى موسكو منذ طفولته ، لابل تربى ونشأ فيها واشتغل وهو صبي صغير بغسل زجاجات الخمر فى أحد مصانع تقطير الخمر ، ثم انتقل إلى الخدمة فى بيت أحد الساده ؛ وفى السنوات الأخيرة كان يعمل موظفاً عند أحد التجار ، ولو لم يطلب للخدمة العسكرية لكان اليوم فى خدمة ذلك التاجر .

وها هو لم يجند ، ولم يتعود حياة الريف المملة التى كادت تقضى عليه من الضجر ، فقرر أن التسكع فى موسكو وعد حجارة الطريق أحسن بكثير من الحياة فى القرية ؛ وهكذا عاد إلى موسكو .

إلا أن اعتقاد جراسيم هذا لم يطل ، فقد أمضى ثلاثة أسابيع فى التسكع وحفيت قدميه بحثاً عن عمل ، وكلما مرت الدقائق والساعات

وهو بلا عمل يتسكع في شوارع موسكو ، كما ازداد ضجره وملله ونقمته .
وفي حالة اليأس هذه ، لم يترك أحداً من معارفه من غير أن
يزعجه بأسئلته المتكررة عن مكان يشغله أو عمل يعمل به . وحتى المارة
في الشوارع كان يستوقفهم سائلاً - وفي كل مرة كان يسمع نفس الجواب .
وأخيراً لم يستطع جراسيم البقاء حملاً ثقيلاً على معارفه وأصدقائه
الذين تضايق بعضهم لقدمه ، وضجى آخرون براحتهم في سبيل
إطعامه ونومه ؛ وردد جراسيم في نفسه مراراً : « لا أستطيع البقاء ..
لا أستطيع ... لا أستطيع » ولكنه لم يعرف أين يتجه ، وقال لنفسه :
« إنني على استعداد لتمضية أيام بلا أكل . » ولكن السؤال نفسه عاوده :
إلى أين يتجه ؟

* * *

وفي أحد أيام حزنه الشديد ، اتجه جراسيم إلى أحد معارفه الذين
تعرف عليهم في القرية ؛ وكان يعيش هذا الرجل في أحد أطراف موسكو ،
بالقرب من سكولنيك ، ويعمل حوذاً عند تاجر يعرف باسم شاروف ،
استماله بطلاقة لسانه حتى أصبح يأتمنه ويعزه ، فاصبح الامر الناهي في
المنزل بلا منازع .

وحين رأى الحوذي جراسيم حياه بحرارة واستقبله استقبالا طيباً
ثم قدم له شيئاً من الأكل وقدحا من الشاي وسأله عن أحواله .
فقال جراسيم : « سيئة يا يغور دانيلتش . لقد مضى على عدة أسابيع
بلا عمل . »

سأله يغور : « ألم تطلب من سيدك السابق أن يعيدك إلى عملك ؟ »

قال جراسيم : « لقد فعلت . »

« ولماذا لم يعدك ؟ »

« لأن شخصاً آخر قد حل مكانى . »

« هذه هى بلييتكم أيها الشباب ، إنكم تخدمون أسيادكم بلا اهتمام ، حتى إذا تركتم العمل سدت حماقتكم طريق العودة إليه . يجب عليك أن تخدم سيدك بإخلاص وأمانة حتى إذا عدت إليه تطلب عملاً لم يجز على رفضك . » وهنا اعتدل يغور فى جلسته وتابع قوله : « خذنى مثلاً ؛ فأنا إن تركت عملى ، وعدت أطلب من السيد شاروف أن يستخدمنى ثانية ، فسوف لا يقبلنى فقط ، بل سيستقبلنى بحرارة وترحاب ، وطأطأ جراسيم رأسه يتفحص الأرض بعينه وهو يستمع إلى نصيحة صديقه ، ودلته خبرته على أن صديقه يريد أن يتباهى ويتفاخر ، ولم يجد ضرراً فى إرضاء غروره فقال : « أننى أعرف ذلك ، وأنت تعرف يا يغور بأنه من الصعب إيجاد شخص آخر يتمتع بالمزايا التى تتمتع بها . ثم لو أنك كنت عاملاً فقيراً لما أبقاك سيدك إثني عشر سنة . »

وابتسم يغور لسماع هذا المديح الذى أَرْضَى غروره ، ثم قال :

« أجل يا صاحي ، إذا أردت أن تعيش وتعمل مثلى لما وجدت

دقيقة واحدة تستريح فيها خلال عدة أشهر . »

ولم يحب جراسيم ، وذهب يغور ليرى سيده الذى أرسل فى طلبه

وقبل أن يذهب استأذن صديقه قائلاً :

« سأعود بعد برهة »

فهن جراسيم رأسه قائلاً : « حسناً »

* * *

عاد يغور ليقول بأن عليه أن يهيئ العربية والخيول في نصف ساعة ليأخذ سيده إلى المدينة . وأشعل غليونه وخطا عدة خطوات استدار بعدها إلى صديقه قائلاً :

« اسمع يا صاحبي ؛ إذا أردت فسوف أطلب من سيدي أن يستخدمك هنا . »

فسأله جراسيم بلهفة : « وهل هو في حاجة إلى رجل ؟ »

« يوجد عندنا الآن خادم ، ولكن هو أو قتلته سواء . فهو طاعن في السن لا يقدر على القيام بأعباء المنزل . ومن حسن حظنا أن المنطقة ليست مأهولة ، فلو أنها كانت لتدخل البوليس وطلب تنظيف المكان ، ولما قبل القذارة الحالية . »

قال جراسيم : « أرجوك إذا كان بإمكانك اقناع سيديك أن تفعل يا يغور دانيلتش ، وسأصلي لك طيلة حياتي . فأنا لا أطيق هذه الحياة الصعبة . »

فقال يغور : « حسناً ، سأفعل . احضر غداً إلى هنا وسأخبرك بما سيحدث . والآن اليك العشرة كوبيكات هذه ، ربما احتجتها . » وأخرج المبلغ من جيب سرواله .

صافح جراسيم صديقه وقال : « شكراً يا يغور دانيلتش ، فأنا أعتمد عليك ؛ أرجوك أن تؤدي لي هذا المعروف . »

فأجابه يغور : « حسناً ، سأفعل كل ما في وسعي . »

وخرج جراسيم من بيت السيد شاروف وهو يحلم بالعمل فيه ،
وأسرع يغور إلى الخيل يسرجها . وساق العربى إلى باب المنزل فركب
سيده ، واتجه به إلى المدينة لقضاء بعض الأعمال ، وكر عائداً به
إلى المنزل .

وكان السيد شاروف منشرح الصدر فى تلك الليلة ، فتقدم منه يغور
وقال :

« أيها السيد يغور فيودوريتش ، إن لى رجاء عندك . »

قال السيد شاروف : « قل ما هو ؟ »

« هناك شاب من قريتى متعطل . »

« حسناً ؟ »

« ألا تستطيع استخدامه عندك ؟ »

« عندى ؟ ولكن ماذا أريد به ؟ »

قال يغور وهو يمعن النظر فى سيده : « خادم يقضى لك جميع
حاجاتك . »

ألا أن الأخير لم ير كيف يمكن استخدام ذلك الشاب خادماً وعنده
الخادم بوليكاربتش فقال :

« ولكن هنالك بوليكاربتش ! »

قال يغور محاولاً اقناع سيده : « إنه عديم النفع ، وأظن أن الوقت
قد حان لأن تطرده . »

فاستنكر سيده ذلك قائلاً : « ليس من العدل أن أطرده بعد أن أفنى
حياته فى خدمتى ؛ اننى لا أقدر أن أفعل ذلك . وكيف تريدنى أن أفعله
بلا سبب ؟ »

« وإن كان قد أفنى حياته في خدمتك ! انه لم يخدمك لوجه الله ، بل دفعت له أجره . وأنا لا أشك بأنه أدخر بعض الروبلات لمثل هذا اليوم . »

ضحك السيد شاروف لسماح هذه الكلمات وقال : ادخر ! وكيف يدخر ؟ ان له زوجة يطعمها ويعيشها . »

قال يغور : « إنى أعرف ذلك . ولكن امرأته ليست عاطلة ، بل تعمل في بيع الفحم ، ومن غير المعقول أنه لم يدخر شيئاً . »

فأجاب السيد في سخرية : « وماذا ستربح امرأته من بيع الفحم ؟ هل ستكسب ما يمكنها من شراء موسكو ؟ ! »

« ولماذا تهتم هذا الاهتمام ببوليكا ربتش وزوجته ؟ إذا أردت القول الحق فهو خادم لا نفع له . لماذا ترمى نقودك هكذا ؟ إنه لا ينظف الطريق من الثلج في الميعاد المحدد ولا يقوم بأى عمل . وحين يأتى دور حراسته يسهو ما يقرب من العشرة مرات كل ليلة . إنه لا يقدر على تحمل البرد . وإذا لم تهتم بأمورك سيقع قريباً سوء تفاهم بينك وبين السلطات بسبب كسله وعدم تنظيفه المكان ، »

قال السيد : « إنى لا أجد القلب لطرده يا يغور . لقد أمضى في خدمتى خمسة عشر عاماً . وطرده بعد هذه السنين يعد خطيئة لا تغتفر . »

فأجاب يغور مستنكراً : « خطيئة ! معاذ الله . وكيف تعد خطيئة ؟ ! إنك لن تتركب جرماً ، فهناك الجمعيات الخيرية ستكفل به وترجحه من التعب الذى يتكبده كل يوم . »

وفكر شاروف طويلاً قبل أن يقول : « حسناً يا يغور . ادع صديقك إلى هنا وسأرى ماذا يمكنني عمله . »

« أرجوك أن تستخدمه ياسيدي ، فهو شاب لطيف مخلص ، سيفنى نفسه في خدمتك . اضطر لترك عمله حين دعى للخدمة العسكرية ولولا ذلك لما تركه سيده يذهب . »

* * *

وعاد جراسيم في مساء اليوم التالى ليسأل صديقه :

« حسناً ، هل أمكنك عمل شيء بخصوصي ؟ »

« على ما أظن انني وفقت . ولكن لنشرب أولاً شيئاً من الشاي وبعد ذلك سنقابل السيد . »

ولم يكن جراسيم في حاجة إلى الشاي ، أو إلى أى شيء آخر ؛ فهو على أحر من الجمر يود معرفة الجواب النهائي . ولكنه لم يستطع رفض طلب صديقه ، فتجرع كأسين من الشاي في أسرع ما يمكن ، قاده يغور بعدها إلى مقابلة السيد شاروف .

وسأله السيد الأسئلة العادية عن حياته ، وعمله السابق ، وأخبره بأنه على استعداد لاستخدامه كخادم يقوم بجميع الأعمال ، وبأن عليه أن يأتى في اليوم التالى مستعداً لاستلام عمله .

وتقبل جراسيم نبأ قبوله بسرور شديد ، حتى أنه لم يقو على الوقوف ؛ وجر قدميه إلى غرفة صديقه الذى ابتدرة قائلاً :

« حسنًا ، أرجو أن تنتبه إلى عملك ولا تجعلني أطاقىء رأسى
خجلا أمام السيد . فأنت تعرف السادة وشدتهم . إذا أخطأت مرة
واحدة استمروا فى نقدك حتى توارى التراب » .

قال جراسيم وقد أخذ الفرح منه مأخذا عظيما : « لا تقلق بالك من
هذه الناحية يا يغور داينلتش » .

فنفخ يغور أوداجه إستعدادا للتباهى والتفاخر وقال : « حسنًا —
حسنًا . . . » .

إلا أن جراسيم الذى شعر بقدوم مواعظ صديقه وأمثله التى
لا تتعدى نفسه لم يترك له الفرصة بل إستأذن فى الذهاب وخرج على
أن يعود فى اليوم التالى .

وحين خرج جراسيم من منزل السيد شاروف مر بغرفة
بوليكاربتش الخادم العجوز ، التى تقع فى فناء المنزل ، ونظر من النافذة
إلى الداخل ليستطلع أحوال سكنه الجديد ، ولكنه لم يستطع تمييز شىء
ما — فقد أوجد البرد طبقة كثيفة من الصقيع على زجاج النافذة يصعب
رؤية شىء خلالها . وسمع صوت امرأة تسأل :
« ماذا سنعمل الآن ؟ »

فأجابها صوت رجل — بلا شك صوت بوليكاربتش : « لست
أدرى . . . لست أدرى . . . ربما نسأل فى الشوارع » .
قالت المرأة فى حزن : « أجل ، هذا كل ما نقدر عمله ، فلم يتبق
لنا شىء آخر . يا لحياتنا نحن الفقراء ، إنها مليئة بالتعاسة والشقاء .
إننا نعمل يوما بعد يوم من الصباح الباكر حتى أوائل الليل ، نفنى العمر
كله فى العمل ويعد ذلك يكافؤنا بقولهم : أحزموا أمتعتكم وارجلوا » .

« وماذا يمكننا عمله ؟ أن السادة ليسوا من طينتنا - لا تجدى مناقشتهم ، ومصالحهم تأتي قبل كل شيء . »

« يالو ضاعة السادة ، أنهم لا يفكرون إلا بأنفسهم ، وأما نحن ، الذين نفنى العمر فى خدمتهم بأمانة وإخلاص ويمتصون دماءنا وجهدنا وعرقنا فليس لنا أدنى إهتمام لديهم . حين تتقدم بنا السن يقولون لنا : أخرجوا . ومع أننا لانزال نملك من القوة ما يمكننا من القيام بأعباء العمل . هل يظنون أننا لو لم نستطع العمل سنقبل أن نعيش حالة عليهم ؟ ! » .

قال الخادم العجوز : « لا تلومى السيد ، بل الذى يلام هو ذلك الحوذى يغور دانييلتش الذى يود إيجاد عمل لصديقه . »

فقالت المرأة : « أجل ، أنه حية رقطاع تنفث سمومها . ولكن إنتظر أيها الحيوان وسترى كيف سأرد لظمتك هذه بائنتين . إنتظر حتى أذهب إلى السيد وأخبره عن خداعك وكذبك وسرقتك المستمرة للبنتين . سأكتب كل ذلك وأرسله إلى السيد حتى يعرفك على حقيقتك . »
فنهرا الخادم العجوز بصوت واهن ضعيف : « لا تتكلمى هكذا أيتها العجوز ، لا ترتكبي خطيئة . »

« خطيئة ؟ ! وأين الخطيئة ؟ أليس ما قلته حقيقة ؟ أننى أعرف ماذا سأفعل ، وأنا أعنى ما أقول . سأذهب إلى السيد وأخبره فى الحال . يجب أن يرى بأم عينيه سرقة خادمه الأمين . لماذا لا أتكلم ؟ لقد حططنا ، لقد قضى علينا . فماذا نحن فاعلون الآن ؟ إلى أين سنذهب ؟ لقد قضى علينا ... »

وانفجرت المرأة باكياً ...

سمع جراسيم كل ذلك الكلام . فغاص في أعماقه كالنصل وشعر
بالبؤس الذي سيحله عمله بالخادم العجوز وامرأته . فوقف في مكانه كأنه
سمر إلى الأرض ، منكس الرأس ، حزين الفؤاد ، مبلل الفكر . ثم جرقدميه
عائداً من حيث أتى ، إلى غرفة صديقه الخوذي الذي استغرب مقدمه ،
فسأله بدهشة :

« ماذا أتى بك ؟ هل نسيت شيئاً ؟ »

قال جراسيم بصعوبة : « كلا يا يغور دانيلتش . ولكن جئت
لأقول لك . . . » وهنا توقف عن الكلام ليأخذ نفساً عميقاً ثم تابع :
« لأشكرك كثيراً على . . . الطريقة التي استقبلتني بها . . . و . . .
وللتعاب التي سببتها لك . . . ولأقول لك . . . أني . . . لا أستطيع
العمل هنا . »

فسأله يغور بحده واستغراب : « ماذا ؟ ! ما هذا الهراء ؟ !
« إنه لا يعني شيئاً . فأنا لا أريد هذا العمل وسأبحث عن عمل آخر

بنفسي . »

وفقد يغور أعصابه وصاح في وجه جراسيم بحدة وغضب :
« هل أردت أن تجعلني مهزلة أمام سيدي أيها الأبله . لقد أتيت
إلى هنا متدلاً ولو أمكنك لقبيلت الأرض بين قدمي وأنت تقول :
أرجوك أن تحاول لدى سيدك . . . أرجوك أن تفعل . والآن ترفض
أيها الوغد . أنك تعرفني بعملك هذا ! »

ولم يجب جراسيم على هذا السيل من الشتائم بل طأطأ رأسه واحمر
وجهه ثم التقط قبعته وخرج .

وتهمل جراسيم وهو يسير في فناء المنزل . وما أن خرج من المنزل
حتى أسرع الخطى وقد امتلأ قلبه بالسرور والسعادة . . .

دست و یفسکی

لصر شریف

فيودور مايكوفيتش دستوفسكي

ولد دستوفسكي عام ١٨٢١ في مدينة موسكو . وتوفي عام ١٨٨١ .
وكان أصغر أبناء طبيب . من أطباء الريف ، فظ الطباع وزير نساء .
وكان جده لأبيه قسيسا ، ويقال بأن عائلته كانت من اعرق واكبر العائلات
الدينية في روسيا . الا أن فيودور تشبع منذ حداثة بروح الشك وعدم
الآيمان ، فاصطبغت بعض قصصه بالنزعة الالحادية ، ولا سيما قصة «الأبله»
التي نقد الكنيسة فيها نقداً مرأ على لسان بطلها الأبله .
وكان دستوفسكي منذ حداثة فريسة لنوبات من الصرع أفست عليه حياته
ابتداً دستوفسكي حياته العملية ضابطا في جيش القيصر ، وسرعان
ما طرد منه لأنه رفض الانتقال إلى الريف ، وفضل البقاء في بطرسبرج
بين الكتب والمؤلفات .

وعرف العالم دستوفسكي أديبا في سن الرابعة والعشرين ، أي بعد
أن طرد من الخدمة العسكرية بعام واحد ، وذلك حين أصدر قصة «المساكين» .
ودستوفسكي علم من أعلام القصة ، ولا سيما القصة الطويلة الانسانية .
فقد تجسدت فيه ، كما تجسدت في جوركي فيما بعد ، عناصر تكوين
امته . وابطال رواياته صورة حية صادقة للشعب الروسي ، بمناقضات
مجتمعة ، وعمق تأثره ، وصبره ... الذي يخفي بين طياته تحفزا وثوره .
وقصة «اص شريف» تجسد لمناقضات هذا المجتمع ولتأثر هذا الشعب .
وصف دستوفسكي نفسه فقال : « اني طليعة معركة تخاض ضد ادب
مجتمعي » ووصفه الناقد الروسي سترافوف فقال : « بلاشك لقد كتب
دستوفسكي عشر القصص التي قرر أن يكتبها ... أن المواضيع التي لم يكن
لديه وقت لمعالجتها لا تعد ولا تحصى ... »

لص شريف

حين كنت على وشك الذهاب إلى عملي في صبيحة أحد الأيام ، أتت
أجرا فينا ، طاهيتي وغسالتى ومديرة منزلى إلى غرفتى ، ولعظيم دهشتى
بدأت تكلمنى .

كانت أجرا فينا دائمة الصمت ، بسيطة ، لم يتعد كلامها عدة أسئلة عن
الطعام خلال السنوات الست التى قضتها فى خدمتى . على الأقل هذا ما أعرفه .
قالت فى جفاء : « أود تحدثك أيها السيد . يجدر بك أن توجر
الغرفة الصغيرة . »

- أية غرفة ؟

- الغرفة التى بجانب المطبخ . إنك تعرفها !

- ولماذا أوجرها ؟

- لماذا ؟ لأن الناس تفعل ذلك . انك تعرف !

- ولكن من سيستأجرها ؟

- من سيستأجرها ؟! ساكن بالطبع . من تظن ؟

- ولكنها أيتها المرأة الطيبة لا تتسع إلى سرير ، ولا يوجد فيها موضع

للقدم ! ومن ذا الذى سيعيش فيها ؟

- من ذا الذى سيعيش فيها ؟! مادام لديه مكان ينام فيه انه سيعيش فى

النافذة .

- فى النافذة ؟! وأية نافذة ؟

- أية نافذة ؟ كأنك لا تعرف ! التى فى الممر . انه سيجلس هناك يحبك

التياب ، أو يقوم بأى عمل آخر ، وربما يجلس على كرسى . إن لديه

كرسيا ، ولديه مائدة أيضا ؛ عنده كل شيء .

- من هو ؟

- آه ! إنه رجل طيب ، رجل ذو خبرة . سأطبخ له ، وسأطالبه بثلاثة

روبلات شهريا مقابل سكنه وأكله .

وبعد استفهام طويل علمت بأن رجلا متقدما في السن قد اقنع أجرافينا بطريقة ما على إدخاله المطبخ كساكن وموكل .

لا بد من تنفيذ كل فكرة تعن لأجرافينا ، والافلن يسود الهدوء والسكينة البيت . وإذا لم تسر الامور حسب هواها ، سيطر عليها الحزن ، وشرد ذهنها ، وتستمر على هذا الحال أسبوعين أو ثلاثة . وفي هذه الاوقات ، يكون الأكل رديئا ، ويضيع الغسيل ، وتبقى الغرف من غير تنظيف ؛ وفي كلبة واحدة يكون كل شيء رديئا كريها . لقد لاحظت منذ وقت بعيد أن هذه المرأة الصامتة لا تستطيع التفكير أو تقرير أى شيء ، أما إذا وضعت فكرة ما في عقلها الضعيف فمن الخطأ عدم تنفيذها لأن ذلك يعنى القضاء عليها نفسيا . وبما أنني أحب الهدوء والسكينة أكثر من أى شيء آخر ، فقد وافقت على اقتراحها .

- هل لديه أوراق قانونية ، جواز سفر أو أى شيء آخر ؟

- بالطبع ! أنه رجل طيب ، رجل ذو خبرة . وعد بدفع ثلاثة

روبلات .

وفي صبيحة اليوم التالى ظهر الساكن الجديد فى بئى العزبى المتواضع ؛ فلم انزعج لذلك بل سررت . كان من طبعى أن أحيا حياة عزلة وانفراد ، فليس لى أصدقاء ، وقلما أخرج وقد اعتدت هذه الحياة بعد أن أمضيت عشر سنوات لا أخرج من قوقعى . الا أن فكرة معيشه

عشر سنوات أخرى أو أكثر في هذه الحياة المنعزلة ورفقه أجراءنا
وفي نفس المنزل ، تعد فكرة كئيبة . لهذا فرقه شخص جديد لن يتعبني ،
كانت نعمة عظيمة .

ولم تكذب أجراءنا ، فالرجل حقا كان ذا خبرة . لقد كان جنديا
في يوم من الأيام كما دل جواز سفره ؛ وكان على أن أعرف هذه الحقيقة
من النظرة الأولى إلى وجهه ، فمن السهل معرفة الجندي السابق .
كان أستاذي أفانوفيتش رجلا طيباً ، فعشنا سوياً على أحسن ما يرام .
والأفضل من كل هذا أن أستاذي أفانوفيتش كان في بعض الأحيان يقص
على بعض الأحداث التي مرت عليه . فكان هذا الراوية كنزاً لا يقدر في
جو السأم والضجر الذي أعيش فيه . وفي أحد الأيام قص على قصة
من قصصه أثرت في نفسي ، وكان الداعي لذلك الحادثة التالية :

كنت وحيداً في البيت ، فقد خرج أستاذي وأجراءنا ليقضي كل
منهما أعماله الخاصة . و فجأة سمعت وقع أقدام في الغرفة الداخلية ،
فتوقعت بأن يكون الداخل غريباً . وذهبت لأرى ؛ فلم يخطئ حدسي .
كان يقف في الممر رجل غريب ، قصير ، ليس عليه معطف مع أن البرد
الخريف كان قارساً .

- ماذا تريد ؟

- هل يقطن هنا موظف يدعى الكسندروف ؟

- لا يقطن هنا أحد بهذا الاسم أيها الأخ ، مع السلامة .

- لكن البواب قال لي بأنه يعيش هنا .

- وانسحب الزائر في حذر نحو البواب .

- هيا أخرج أيها الأخ

وبعد ظهر اليوم التالى ، حين كان أستافى أفانوفيتش يقيس لى معطفاً
من معاطفى كان يصلحه ، دخل شخص إلى الممر ، ففتحت الباب
نصف فتحة :

أخذ زائر اليوم السابق معطفى الشتوى عن المسمار ووضعه أمام
عيني تحت ابطه فى هدوء وحرصاً ثم اندفع خارجاً من البيت . وقفت
أجراً فينا طيلة الوقت تنظر الى فاعرة فاها من الدهشة ، ومن غير أن
تفعل شيئاً للحفاظ على معطفى . واندفع استافى لاحقاً باللص ، وعاد
بعد عشر دقائق خالى اليدين يلهث . لقد اختفى اللص .

- حظ سيء يا أستافى أفانوفيتش . لكنه عمل طيب حين ترك
معطفك يا أستافى والا لأوقعنا الوغد فى ورطة !

وكان تأثير السرقة عظيماً على أستافى أفانوفيتش إلى حد أننى نسيت
كل شيء عنها حين نظرت إليه ؛ ببساطة ، لم يستطع التغاضى عنها . وكل
دقيقة أو اثنتين كان يلقى بعمله جانباً ويشرح مرة أخرى كيف حدث
كل شيء . كيف كان واقفاً ، كيف أخذ المعطف أمام عينيه ، على بعد
ياردة ، وكيف عجز عن إلقاء القبض على اللص . ويلتقط عمله ، ويلقى
به مرة أخرى . وأخيراً رأيته ينزل إلى البواب ، يشرح له ما حدث ،
ويوجهه لسماحه بحدوث مثل هذه الأشياء فى عمارته . وعاد فوبخ أجراً فينا .
ثم جلس إلى عمله يغمغم لنفسه كيف حدث كل شيء . كيف كان يقف
هناك ، وأنا هنا ، وكيف سرق المعطف أمام أعيننا على بعد ياردة .. الخ
وفى كلمة واحدة كان أستافى أفانوفيتش ثرثاراً ، كثير الكلام وان يكن
ماهرآ فى عمله .

قلت له في المساء ، وأنا أعطيه قدحاً من الشاي :

- لقد ضحك منا يا أستاذي أفانوفيتش .

كنت أود إضاعة الوقت في إعادة تفاصيل قصة سرقة المعطف ؛

فإعادتها المستمرة وحماس المتكلم المتزايد مسليين للغاية .

- أجل ضحك منا يا سيدي ! فأنا لا أستطيع نسيان الأمر مع أن

المعطف ليس لي . ان ذكره تيجني . لا يوجد ، في رأي ، حشرة أقدر

من اللص . من الممكن أن يأخذ شخص ما تستطيع الاستغناء عنه ، أما

الاص فيسرق عملك ، عرق جبينك ، ووقتك . أخ ! انها قذاره لا يستطيع

الإنسان وصفها ؛ انها تغيظ ! كيف لا تشعر بضياح ملكك يا سيدي ؟

- انك على حق يا أستاذي افانوفيتش . لو حرقت المعطف لكان

أفضل ، أما أن يأخذه لص فذلك يغيظ . . . انه كرهه !

- حقاً يا سيدي انه يغيظ . ولكن بالطبع توجد أنواع من اللصوص

يا سيدي — لقد قابلت في إحدى المرات لصاً شريفاً .

- ماذا تعني شريفاً ؟ كيف يمكن للص أن يكون شريفاً يا أستاذي

أفانوفيتش ؟ !

- حقاً يا سيدي ، لا يوجد هناك شيء كاص شريف . ما عنيته هو

أن الرجل بدا شريفاً ولكنه سرق . لقد تأسفت لذلك .

- ماذا حدث يا أستاذي افانوفيتش ؟

- كان ذلك قبل سنتين يا سيدي . وكان قد مضى على عام وأنا

عاطل بلا عمل . تعرفت وأنا في عملي السابق على انسان مسكين ، ضل

الطريق . تعرفت عليه في إحدى الحانات ، كان سكيراً ، متشرداً وشحاذاً .

وكان في يوم من الأيام موظفاً في الحكومة ، الا انه فقد وظيفته بسبب إدمانه على الخمر . لم يكن هناك رجل عديم القيمة مثله . ولا يعلم إلا الله ما كان يستر به جسده . وكثيراً ما كنت تشك فيما إذا كان يلبس قميصاً تحت معطفه ؛ وكان ينفق كل مليم معه على الشراب . ومع ذلك لا أذكر أنه لجأ إلى الشجار مرة واحدة ، بل كان هادئاً ليناً ، طيب القلب ، يخجل من السؤال ، إلا انك كنت تشعر أن الرجل يريد كآساً فتقدمها له . وهكذا أصبحنا أصدقاء ، أو بالأحرى تعليق هوى . . . فلم أمانع ! يا له من رجل غريب الأطوار ! لقد كان يتبعني ككلب صغير . فبعد مقابلتنا الأولى كنت أجده في كل مكان أذهب اليه . كان هزيراً رقيقاً كالخيط . وفي بادىء الأمر لم تتعد علاقتنا هذه الكلمات : دعني أنام هذه الليلة ، فتركته يقضيها .

ونظرت إلى جواز سفره ، فرأيت أن كل شيء على مايرام . وفي اليوم التالي أعاد نفس القصة ، وأتى في اليوم الثالث فقط حيلة نهاره في الاستفادة ثم نام ليلته .

وفكرت ، لقد التصق بي ، مالى وله أطعمه وأسقيه وأنيمه ؟ اننى رجل فقير على أن أعول نفسى ! وقبل أن يأتى الى كان يذهب بنفس الطريقة الى أحد موظفي الحكومة ، وكان ملتصقاً به ، يشربان دائماً سوياً ، لكن الموظف أدمن الخمر ومات بعد فترة قصيرة . كان الرجل يدعى ايميليان اليتش . وفكرت . . . عما أفعل به . وخجلت لمجرد التفكير في طرده ؛ لقد كنت حزيناً لحالة هذا المسكين الضال . لم يكن يطلب شيئاً بل يجلس في صمت ينظر الى عينيك كالكلب . كان مثلاً حياً لما تصنعه الخمر .

وجلست أفكر كيف سيستقبل المسكين نبأ طرده . ماذا سيفعل حين أقول له :

« اننى رجل مسكين يا ايميليا ، ولا يمكننى اعالتك ، فقد أسأت الاختيار . سيأتى اليوم الذى لن أجد فيه ما أترمق به ، فكيف تريدنى أن أساعدك ؟ هيا ارحل يا صاحبي ! »

وتصورته وهو يحمق فى . وتساءلت كم من الوقت سيجلس فى النافذة لا يعنى ما أقول . وكيف سينزل عن النافذة حين يفهم فيأخذ صرته الملفوفة بمنديل أحمر كبير ممتلئ بالشقوب ، والتي لم تفارقه أبداً ، وكيف سيصلح من شأن معطفه البالى ليظهر محترماً وليدفعه — وحتى لا تظهر خروقه — لقد كان رقيق العواطف . وكيف سيفتح الباب ثم ينزل السلم والدموع تترقق فى مآقيه . تصورت كل ذلك ... بل خيل لى بأنى أراه أمامى . لكنك لا تقدر أن تقضى على رجل هكذا ، فإنك ستشعر بالحزن ...

ومرة أخرى قلت فى نفسى : انتظر برهة يا ايميليا ، فلن تحتفل كثيراً معى سأذهب بعد قليل ولن أعود .

وفعلاً ذهبت يا سيدى . لقد قال لى سيدى الكسندر فيليبوفيتش (توفى منذ زمن ، رحمه الله) : « اننى مسرور من عمالك يا أستاذى ، ولن أنساك حين نعود من الريف فسأستخدمك ثانية . »

لقد كنت ساقياً عنده ، وكان سيداً طيباً لكنه توفى فى نفس السنة .

وحين ودعت سيدي وهو ذاهب إلى الريف ، حملت متاعى وملابسى ،
وبعض النقود التى ادخرتها لمثل هذا اليوم وقلت فى نفسى : ستستريح
بعض الشيء يا أستاذى .

وذهبت لرؤية امرأة أعرفها ، فاستأجرت غرفة فى نزها ، الغرفة
الوحيدة الخالية . لقد كانت ممرضة فى أحد الأيام ، أما اليوم فلديها
نزلا وغرفة خاصة بها ، وقلت فى نفسى : حسنا ، وداعا يا عزيزى إيميليا
لن ترانى مرة أخرى يابنى .

وماذا تظن ياسيدي ؟ خرجت لرؤية رجل أعرفه ، وحين عدت فى
المساء وجدت إيميليا أمامى ! كان يجلس هناك على صندوق وصرته
بجانبه ، مرتديا معطفه المبهلهل ينتظرنى . وإيقطع الوقت استعار من
السيدة كتاباً كنائسى أمسكه بالمقلوب . لقد وجدنى أخيراً ! وتدلّت
يدائى فى خيبة أمل ، وقلت فى نفسى : حسنا ، لا يوجد شيء تستطيع
عمله — ولكن لماذا لم تطرده منذ البداية ؟

وسألته للتو : هل أحضرت جواز سفرك يا إيميليا ؟

وجلست فى مكانى ياسيدي ، وابتدأت أفكر ، هل سيتعبنى كثيرا
هذا المتشرد ، وظهر لى بعد تقليب الأمر أنه لن يتعبنى . ولكن يجب
إطعامه : وفكرت للمرة الثانية ، إن كسرة خبز فى الصباح وبصلة
لتساعده على جفاف الخبز ستقضى الحاجة ، وعند الظهر سأعطيه كسرة
خبز أيضا ، وفى المساء بصله أخرى مع بعض «الكفاس»^(١) وإن أراد ،

(١) الكفاس شراب يشبه البيرة يصنعه فلاحى روسيا من تخمير الشعير — المغرب

بعض الخبز . أما إذا توقعنا على بعض حساء الكرنب سيكون حظنا
حسنا . وأنا ياسيدى ، لست إكيلا ، والسكير كما تعلم لا يأكل كثيرا ،
كل ما يريده هو الفودكا والكونياك . لكننى فكرت بشرابه ، وقلت
فى نفسى : أنه سيدمرك بشرابه هذا .

وخطرت لى فكرة استحوذت على تفكيرى . أن حياتى ستفقد كل
معنى لها إذا ذهب ايميليا . . . لذا قررت فى الحال أن أكون أبا وولى
أمر له . وفكرت أنه يجب على أن أحول بينه وبين الدمار ، يجب
أن أمنعه من الشراب . انتظر برهة وسترى . وقلت له : حسنا يا ايميليا
يمكنك البقاء لكن عليك أن تحسن التصرف وتطيع الأوامر .

وفكرت : سأبتدىء بتعليمه أن يعمل شيئا ، ولكن ليس دفعة واحدة .
فلتمرح الآن بعض الشيء بينا أبحث أنا وأجد لك عملا يناسبك يا ايميليا .
إنك تعلم ياسيدى أن الرجل يحتاج الى قدرة خاصة لكل عمل .
وابتدأت أراقبه فى صمت . وسرعان ما اكتشفت أن ايميليا شخصية
يائسة . فابتدأت ، ياسيدى ، ببعض النصائح ، وقلت له هذا . . . وذاك .
قلت له : ايميليا يجب عليك أن تفكر وتغير إيماعك . اترك الخمر !
أنظر الى الأسماك التى تسير بها ، الى معطفك القديم ، أنه لا يصلح إلا
غربالا ، يالها من حالة لطيفة ! ؟ لقد حان الوقت لتقرر .

هل تصدق ياسيدى ؟ لقد جلس ايميليا يصغى الى مطأطىء الرأس .
وصل إلى مرحلة فقد فيها كل القدرة على التفكير السليم وبالتالى الكلام
السليم ، كلبه عن الخيار وسيدجيبك عن الفاصوليا ! كان يصغى الى . . .
ويصغى . . . ثم يتنهّد فى حرقه .

« لماذا تنهد يا ايميليان اليتش ؟ »

« آه ! لاشيء لاتهم بي يا استافى افانوفيتش . هل تعلم لقد تقاطلت
امراتان فى الشارع يا استافى افانوفيتش ، وقلبت إحداهن سلة توت
الأخرى عفوا . »

« حسنا ! وما فى ذلك ؟ »

« فقلبت الأخرى توت الأولى متعمده وسحقته تحت أقدامها . »

« حسنا ! وما فى ذلك يا ايميليان اليتش ؟ »

« ماذا ؟ لاشيء . يا أستافى أفانوفيتش ؛ أننى ذكرتها هكذا .
فقلت فى نفسى : انك ذكرتها هكذا ! أجل ايميليا يا بنى لقد أضاعت
الخنز صوابك . »

« وهل تعرف يا أستافى أفانوفيتش ؟ لقد أوقع رجل بعض النقود
على الرصيف فى شارع جورخوفايا ، كلا أعنى شارع سادوفايا . ورآها
فلاح فقال : هذه من نصيبى . ورآها فى نفس الوقت فلاح آخر وقال :
إنها من نصيبى لقد رأيته قبلك . »

« حسنا يا ايميليان اليتش ؟ »

« وتقاتل الاثنان عليها يا أستافى أفانوفيتش . فأتى الشرطى وأخذ
النقود منهما ، وأعادها الى صاحبها ، وهدد بأخذ الرجلين الى السجن ،
« حسنا ! وما فى ذلك ؟ ما المهم فيه ؟ »

« ماذا ؟ لاشيء . لقد ضحك الناس يا أستافى أفانوفيتش . »

« أخ ! يا ايميليان ! مالنا وللناس ؟ لقد بعث روحك بضمن بخس !
ولكن هل تعرف ماذا سأقول لك يا ايميليان اليتش ؟ »

« ماذا يا أستافى أفانوفيتش ؟ »

« يجب أن تعمل عملاً هذا ما يجب عليك فعله . اننى أقول لك للمرة
المئة ابتدى . اعمل . ارحم نفسك ! »

« ولكن لا أعرف ما أعمل يا أستافى أفانوفيتش . اننى لا أعرف
شيئاً . ولن يستخدمنى أحد يا أستافى أفانوفيتش . . »
« لهذا لن يستخدمك أحد : للسبب الذى فقدت من أجله وظيفتك .
بسبب الشراب يا إيميليا ! »

« وهل تعرف يا أستافى أفانوفيتش أنهم دعوا فلاس الساقى الى
المكتب اليوم ؟ » فسألته لماذا دعوه ؟
« لست أدرى يا أستافى أفانوفيتش . ربما احتاجوه فطلبوا
اليه الحضور . »

وفكرت : أخ ! لقد انتهى كلانا يا إيميليا ! إن المولى يعاقبنا
لخطايانا ! ماذا أستطيع عمله بمثل هذا الرجل ؟
وكان إيميليا خبيثاً بلا شك . كان يصغى إلى ويصغى ... وأخيراً
مل ذلك ، فأصبح يحمل معطفه القديم كلما شعر اننى غاضب . ويخرج
من غير أن يترك أثراً فيتجول طيلة النهار ويأتى ثملاً فى الليل . وكان
لا يعلم إلا الله من أين تأتية النقود . . وعلى كل حال لم يكن لى يد فى
ذلك .

فقلت له : « كلا يا إيميليان إلتش ، أنك تسير إلى الهاوية . أترك
الشراب ، أصنع جيداً لما أقول . أتركه . باستطاعتك أن تنام على السلام
إذا أتيت ثملاً مرة أخرى . لن أفتح لك الباب ! »

أمضى إيميليا ، بعد أن سمع ما قلت ، طيلة ذلك اليوم ، واليوم الذى
تلاه فى البيت ، إلا أنه عاد إلى الخروج فى اليوم الثالث . وانتظرت
عودته ، وانتظرت بلا طائل . يجب أن اعترف بأننى انزعجت لغياب
الرجل - وفكرت محاولا معرفة ما فعلت له . بلا شك لقد أخفته ؛ ولكن
أين ذهب المسكين الآن ؟ أنه هائم على وجهه بلا شك . اللهم ارحمنا !
وأق الليل ، ولم يعد . وخرجت فى الصباح إلى الفناء فوجدته
هناك ! كان نائما على السلام ، وقد ازرق جسده من البرد !

« بحق السماء ما الذى تفعله هنا يا إيميليا ؟ ما هذا ؟ »
« ماذا ؟ إنك . . . إنك غاضب منى منذ أيام ، وثرث فوعدتنى
أن أنام على السلام إذا شربت مرة أخرى . وخفت أن أدخل . . .
فنمت على السلام يا أستاذى أفانوفيتش . »

وتمسكنى الحزن والغضب على هذا الرجل ، فقلت له :
« حقا يا إيميليان اليتش ، يجب عليك أن تقوم بعمل آخر بدلا من
النوم فى الخارج لتحرس السلام ! . »

« أى . . . أى عمل آخر يا أستاذى أفانوفيتش ؟ »
واستبدت فى الغضب فقلت له : « يالك من نفس ضالة ! يمكنك
تعلم الحياكة . أنظر إلى معطفك . ألا يكفي أنه أسما ، فهل يجب أن
تمسح به السلام ؟ ! امسك إبرة وخيطا وارقع أسمالك لتظهر بمظهر
محترم ، أيها السكير ! »

وماذا تظن ياسيدى ؟ لقد ذهب فعلا وأحضر إبرة ثم خلع معطفه
وجلس يحاول إدخال الخيط فى خرم الإبرة . فراقبته فى صمت . وكما
تستطيع أن تتخيل ، كانت عيناه حمرة ، ويداه ترتعش . وحاول . . .

وحاول... إلا أنه فشل؛ فرك عينيه، وبل الخيط، وحاول مرة أخرى
ففشل، وتخلي عن المحاولة ونظر إلى .

فقلت له : « حسنا يا إيميليا ، لو كان هناك بعض الشهود لخطمت
رأسك ! ما هذا ؟ لقد قلت لك ذلك لتشعر بصغر نفسك .. بحق
السماء أترك الابرة واجلس هادئاً هناك ، ولا تعود إلى مثل هذه
الأعمال فتعزني بنومك على السلام ... ! »

« ولكن ماذا في استطاعتى يا أستاذى أفانوفيتش ؟ أننى أعرف
تماماً أنى حيوان سكير وأننى لا أصلح لشيء . ! لقد أزعجتك بدلا
من أن أقابل إحسانك

ولوى فيه ، وزم شفثيه الزرقاء فى عصبية ، وانهمرت الدموع
على خده الأبيض ، وانفجر إيميليا باكياً .. يا للسماء ! وشعرت أن
خنجرأ قد أغمد فى صدرى . ياله من إنسان حساس ! لم أكن أتوقع
منه ذلك ! من كان يتصور هذا ؟ ففكرت : كلا يا إيميليا سأتركك
نهائياً ، ويمكنك أن تعيش فى القدارة إلى قمة رأسك .

وما فائدة الإطالة يا سيدى ، أن الحادث تافه لا يستحق الكلام
فيه . والحق لو أنك رأيته لما أعرته أدنى إهتمامك . ولكن أنا ...
لأعرته الكثير من وقتى - إن كان لدى الكثير - حتى لا يحدث
ماحدث .

كان لدى سروال ركوب من أجود الأنواع . فصلته من قماش أزرق
لأحد سادة الريف ، فرفض أن يأخذه مدعياً أنه ضيق ، وبقى
لى . وخطر لى خاطر : لماذا لا أبيعهُ لتاجر الملابس المستعملة ؟
فبإمكانى الحصول على خمسة روبلات فضية ، وإن لم أستطع فبإمكانى

تفصيل سروالين منه وبيعهم لسادة بطرسبرج . وتزيد قطعة فأفصلها
صدره لي . فأنت تعلم يا سيدي أن الفقراء أمثالي لا يستطيعون التفريط
في شيء .

وكان إيميليا حزينا في هذه الفترة . كان يجلس في النافذة يوما بعد يوم
من غير أن يشرب قطرة واحدة من الخمر ؛ ولكنه كان يجلس في بلاد
البوم . فشعرت بالحزن لرؤيته يقبع طيله اليوم في مكانه لا يفعل شيئا
سوى التفكير . وقلت في نفسي : أما أنك لا تملك مليا تتفقه يا إيميليا .
أو أنك ابتدأت صفحة جديدة ، فتركت الشراب وحكمت عقلك .
وهذا ما حدث لنا يا سيدي :

أقبل علينا العيد ، فخرجت للصلاة في المساء ، وحين عدت وجدت
إيميليا جالسا في النافذة يتمطوح ذات اليمين وذات الشمال ! ففكرت :
آه ! هذا ما فعلته يا بني !

وذهبت لأحضر شيئا من الصندوق ، فلم أجد السروال ... وبحثت
في كل مكان ، إلا أنه كان قد اختفى ؛ وشعرت بشيء يغمد في قلبي .
وهزلت في بادئ الأمر إلى المرأة العجوز اتهمها بسرقة ؛ ولم يساورني
أدنى شك في إيميليا ، مع أنه كان يجب أن يساورني لجلوسه ثملا .

فقالت العجوز : « كلا ، يرباك الله يا بني . وماذا أريد بسروال
ركوب ؟ هل سألبسه ؟ لقد فقدت ثوبي منذ أيام بواسطة رجل مثلك ...
لست أعرف عن سروالك شيئا ، وليس باستطاعتي أن أخبرك شيئا . »
فسألتها في جنون : « من كان في غرفتي ؟ من دخلها ؟ »

قالت : « لم يدخلها أحد أيها الرجل الطيب . لقد كنت هنا طيلة
الوقت ؛ خرج إيميليان اليتيم ثم عاد ؛ وها هو جالس هناك فاسأله . »

وصحت : « ايميليا ! هل أخذت سروال ركوبي ؟ السروال الذى فصلته
للرجل من الريف ، انك تذكره جيداً . »

« كلا يا أستاذى افانوفيتش ، لم ألمسه . »

وكنتم فى حالة لا أحسد عليها ، فرحت ابحت فى كل مكان —
ولكن من غير جدوى . وايميليا كان يجلس فى مكانه يهتز ذات اليمين
وذاات الشمال . ربضت بجانب الصندوق ثم نظرت فجأة إلى ايميليا .
ليرحمنا الله ! وشعرت بالثورة تتأجج فى صدرى واحمر وجهى ، فنظر
ايميليا إلى وقال :

« كلا كلا لم آخذ سروالك يا أستاذى افانوفيتش . . .
ربما فكرت أننى فعلت ولكن لم أخذه ! »

« ولكن ماذا حدث له يا ايميليان اليتش ؟ »

« كلا يا أستاذى افانوفيتش . اتى لم أره . »

« أظن يا ايميليان اليتش أنه خرج من البيت لوحده . ايه ؟ »

« ربما يا أستاذى افانوفيتش »

وحين سمعت ذلك نهضت ، فذهبت إلى النافذة ، وأضأت المصباح ،
وجلست إلى عملى . كنت أصلح صدرية موظف الحكومة كان يقطن
اسفل البيت . وكانت الثورة تتأجج فى صدرى طيلة الوقت وبلا شك
كنت أفضل لو اتى وضعت كل ما أملك فى النار أما أن يسرق
منى شيئاً وشعر ايميليا بغضبي . والمذنب يا سيدى ، كما تعلم ، يشعر
بالغضب وهو على بعد ، كالطيور التى تشعر بالعاصفة قبل هبوبها .

فسألني ايميليا بصوت مرتعش : « هل تعلم يا أستاذي افانوفيتش ؟
لقد تزوج انتيب بروخوريث الذي يعمل في المستشفى اليوم أرملة
الحوذي الذي توفي الأسبوع الماضي . »

ونظرت اليه في غضب ، ففهم ايميليا . ورأيته ينهض ، فيذهب
إلى السرير ويبحث عن شيء ما . وانتظرت — فشغل نفسه بالبحث
فترة من الوقت وهو يغمغم : كلا ، ليس هناك . أين ذهب . وانتظرت
لأرى ماذا سيفعل ، فرأيته يزحف تحت السرير ، ولم أستطع تحمل
أكثر من ذلك ، فقلت له :

« لماذا تزحف تحت السرير يا ايميليان اليتش ؟ »

« أبحث عن السروال يا أستاذي افانوفيتش . ربما سقط هناك . »

« لماذا تسكف نفسك عناء مساعدة رجل مسكين مثلي ؟ لماذا

تزحف على ركبتيك من غير طائل ؟ »

« لا بأس يا أستاذي افانوفيتش ، انني سأنظر . ربما وجدته . »

فصمت : « هم ! انظر إلى يا ايميليان اليتش ! »

قال : « نعم يا أستاذي افانوفيتش ؟ »

« ألم تسرقه مني مثل اللص جزاء الخبز والملح الذي اطعمتك اياه ؟ »

لقد تملكني الغضب لرؤيته يضللي بزحفه .

« كلا يا أستاذي افانوفيتش ، »

وبقي نائماً على بطنه تحت السرير كما كان . ونام فترة طويلة ثم خرج .

ونظرت اليه فرأيت وجهه أبيضاً كالثلج . ونهض فجلس بجانبني في النافذة ،

وصمت ما يقرب من عشرة دقائق .

ثم نهض فاقرب مني وقال : « كلا يا أستاذي . . . كلا يا أستاذي
أفانوفيتش أنتي لم ألمس سراويلك . »

انني أتخيله الآن وهو ينظر الى في رعب . كان يرتجف من رأسه الى
أخص قدميه . يشير الى صدره بأصابع مرتعشة ، وصوته متحرج .
فاضطربت لرؤياه على هذه الحال ياسيدي ، وجلست في مكاني كأني
زرعت في النافذة .

قلت : « حسنا يا ايميليا . أرجوك أن تصفح عني إذا كنت قد اتهمتكم
بلا حق وأنا غاضب . أنسى كل شيء عن السراويل ، فباستطاعتنا أن
نعيش بدونها ، الحمد لله لازالت لدينا أيادينا . فلن نحتاج لسرقه أو سؤال
رجل مسكين آخر ، بل سنكسب خبزنا بعرقنا وكدنا . »

سمع ايميليا كلامي ، وهو واقف أمامي بلا حراك ، ثم جلس .
جلس طيلة المساء ، وحين ذهبت الى فراشي كان لا يزال جالسا في
مكانه . ووجدته في الصباح نائماً على الأرض وقد تكور في معطفه
البالي ؛ لقد كان في حالة نفسية لم يستطع معها النوم في الفراش .

ومنذ ذلك اليوم بدأ حيي لذلك الرجل يموت ، وفي الواقع لم أحتمل
رؤيته في بادئ الأمر . كنت كمن سرقه ابنه ؛ لقد أخذ الألم مني مأخذاً
عظيماً وقلت في نفسي ! أخ ! ايميليا ! ايميليا !

واستمر ايميليا يشرب طيلة اسبوعين من غير انقطاع . لقد كان
ثملاً طيلة الوقت . كان يذهب في الصباح ويعود متأخراً في المساء .
وطيلة الأسبوعين لم أستطع محادثته ، على ما أعتقد كان الحزن قد أخذ
منه مأخذاً عظيماً فأراد أن يهرب من نفسه .

وأخيراً توقف عن الشراب ، لقد أنفق كل ما معه ، فجلس في النافذة مرة أخرى . أننى أذكر أنه جلس هناك ثلاثة أيام بلياليها من غير أن يتكلم ؛ وفجأة رأيته يبكي من الهم والشقاء . كان يجلس في مكانه والدمع ينهمر على خديه كأنه لا يشعر به . أن رؤية رجل كبير يبكي تحزنك ياسيدى .

فقلت له : « ماذا دهاك يا ايميليا ؟ »

وابتدا يرتعش من رأسه إلى أخمص قدميه . كانت هذه هى المرة الأولى التى أكله فيها بعد الليلة المشؤمة .

قال : « لا شىء يا أستافى أفانوفيتش . »

« رعاك الله يا ايميليا . الذى ضاع ضاع . فلماذا تبكى هكذا ؟ »
لقد شعرت بالأسف والحزن عليه .

« آه ... لا شىء . يا أستافى أفانوفيتش . لا يوجد شىء — أود

إيجاد عمل ما ، يا أستافى أفانوفيتش . »

« وأى نوع من العمل يا ايميليا ؟ »

« أى نوع ... ربما وجدت عملاً كعملى السابق . لقد اتصلت بفيدوساى ايفانيتش . لا أود أن أكون عبأ عليك يا أستافى أفانوفيتش . فإذا وجدت عملاً يا أستافى أفانوفيتش سأدفع لك كل شىء . سأرد إليك بعضاً من كرمك . »

« كفى يا ايميليا .. كفى ؛ دع الماضى يمضى ولا تتسكلم عنه . ولنستمر

في حياتنا كما كنا نعيش فى السابق . »

« كلا يا أستاذي أفانوفيتش . ربما فكرت أنني . . لكنني لم أمس
سروالك . . . »

« كما تريد ، ليرعاك الله يا إيميليا ،

« كلا يا أستاذي أفانوفيتش . أنني لا أستطيع الاستمرار في المعيشة
معك . إن ذلك واضح . يجب أن تغفر لي يا أستاذي أفانوفيتش . »

« لماذا لا تقدر على الحياة معي يا إيميليان اليتش رعاك الله ؟ من
الذي أغضبك أو طردك - هل فعلت أنا ذلك ؟ »

« كلا لم تفعل ذلك ، ولكنه ليس من اللائق أن أعيش معك هكذا
يا أستاذي أفانوفيتش . من الأفضل أن أمضي . »

« لقد كان متألماً ، فتشبث برأيه . ونظرت إليه . فنهض من مكانه
وارتدى معطفه فقلت له :

« ولكن إلى أين ستذهب يا إيميليان اليتش ؟ حكم عقلك : ماذا
تريد ؟ ما الذي في رأسك ؟ »

« كلا . وداعاً يا أستاذي أفانوفيتش . لا تؤخرني . - ومرة أخرى
انهمرت دموعه فتابع قائلاً : « الأفضل أن أمضي . فأنت لست
بمهادتك . »

« لست كعادتي ؟ ! إنني كعادتي . لكنك ستضل يا إيميليان اليتش
كطفل صغير . »

« كلا يا أستاذي أفانوفيتش . انك تغلق صندوقك بالمفتاح كلما
خرجت ؛ وذلك يحز في نفسي . دعني أذهب ، واغفر لي كل التعب الذي
كبدتك إياه . . . »

وذهب الرجل ياسيدى . وانتظرت يوما ؛ كنت أتوقع قدومه فى المساء - لكنه لم يعد . ولم أر له أثرا فى اليوم الثانى والثالث . فاضطربت ، ولم أستطع أن آكل أو أشرب أو حتى أنام . وفى اليوم الرابع ، ذهبت إلى الخانات أسأل عنه فلم أجده - لقد اختفى ايميليا . وابتدأت افكر : ايميليا ، هل استطعت أن تحافظ على حياتك ، أم إنك تنام الآن ميتا تحت سور ما ككلب نافق . يا للسكير المسكين !

وعدت إلى البيت نصف حى . وفى اليوم التالى خرجت أبحث عنه مرة أخرى . وعنفقت نفسى طيلة الوقت لحماقتى وتركى الرجل يذهب هكذا . وكان اليوم الخامس عطله . وفى الصباح الباكر سمعت الباب يفتح ، فنظرت ، وهناك كان يقف ايميليا . وجهه أزرق ، ورأسه مغطى بالقاذورات كمن نام فى الشارع ؛ لقد كان هزيلا كعود ثقاب . نخلع معطفه القديم وجلس على الصندوق ثم نظر إلى . لقد كنت مسرورا لرؤيته ، إلا إننى كنت مضطربا عليه أكثر من ذى قبل ، وآلمنى أن أراه على هذه الحالة ، فجعلت أواسيه وأحادثة بلطف واعتنى به .

« حسنا يا ايميليا . إننى مسرور لعودتك . فلو أنك تغيبت أكثر لخرجت اليوم أيضا للبحث عنك فى الخانات . هل أنت جائع ؟ »
« كلا يا أستاذى افانوفيتش ،

« حقا ، هل أنت جائع ؟ لا يزال هناك بعض حساء الكرنب ترك من الأمس ، فيه بعض اللحم ؛ إنه لذيد . وهاك بعض الخبز والبصل . هيا كله . إنه لن يضرک . »

وأطعمته إياه ، فلاحظت لأول وهله أن الرجل لم يذق الطعام

ما يقرب من ثلاثة أيام — لقد كان جائعا كالذئب . إذا لقد أعاده الجوع .
وتحطم قلبي وأنا أنظر الى المسكين . وقلت فى نفسى : سأذهب الى الحانة
وأحضر له ما يرفه به عن نفسه ، ثم نهى كل شىء . إننى لست غاضبا
عليك يا ايميليا . وأحضرت له شيئا من الفودكا وقلت له :

« هاك يا ايميليان اليتش نشرب نخب العطلة — هل تريد كأسا ؟
إنها ستفيدك »

فمد يده ، مدها فى لفه . وحين أخذ الكأس توقف فجأة . ولكنه
وضعها على شفتيه بعد أخذها بدقيقة . وعاد فأبعدها عن شفتيه ، ووضعها
على المائدة .

« ماذا حدث يا ايميليا ؟ »

« لا شىء يا أستا فى افانوفيتش ، إننى ... »

« ان تشرب ؟ »

« أجل يا أستا فى افانوفيتش . إننى لن أشرب ... مرة أخرى »

« هل تعنى أنك تركت الشراب يا ايميليا ، أم إنك لا تريد الشراب »

« اليوم ؟ »

لم يجبنى . وبعد دقيقة رأيت يده يضع رأسه بين يديه فقلت له :

« ماذا حدث يا ايميليا ؟ هل أنت مريض ؟ »

« أجل يا أستا فى افانوفيتش ، إننى لست على ما يرام . »

وحملته ووضعته على الفراش . ولاحظت أنه مريض حقا : لقد كان
رأسه ساخنا ، وجسده يرتعش من الحمى ، وجلست بجانبه طيلة الوقت .
وفى المساء ساءت حالته ، فزجت له شيئا من الزيت والبصل والكرفاس

وبعض كسر الخبز .

وقلت له : « هيا كل شيئا من هذا ، ربما تحسنت حالتك . »

فهبز رأسه في اعتراض وقال : « كلا . لن أتعشى هذا المساء
يا أستاذي افانوفيتش . »

وعملت له قدحا من الشاي ؛ وانهكت العجوز من العمل — لكنه
لم يتحسن ، فانزعجت كثيرا . وفي صبيحة اليوم الثالث ذهبت إلى أحد
الاطباء يدعى كوستوبرافوف وكنت أعرفه حين طبنني وأنا في خدمة
عائلة البوسومياجين . وحضر الطبيب فألقى عليه نظرة وقال :

« إن حالته خطره . لم تكن هناك فائدة من إحضاري . ولكن إذا
أردت فسأعطيه مسحوقا . »

ولم أوافق لأنني اعتقدت أنها حيلة من حيل الطبيب ؛ وأخيرا أتى
اليوم الخامس .

كنت جالسا في النافذة وعمل بين يداي ، بينما هو راقد أماي يذوى
في بطنه . وكانت العجوز توقد الفرن . وقلبي ينظر حزنا عليه كأنني أفقد
أحد أبنائي . وكنت أعلم أن ايميليا كان يراقبني . لقد رأيت الرجل ينظر
إلى طيلة اليوم محاولا أن يقرر ، هل يقل لي شيئا أم لا .

وأخيرا نظرت إليه ، فوجدت عيونه تنطق بالبهوس . وظل ينظر
إلي ، ولكن حين رأي أنظر إليه ، أنزل عيونه وقال :

« أستاذي افانوفيتش ... »

« ماذا تريد يا ايميليا ؟ »

« إذا أخذت معطفي لتاجر الملابس المستعملة ، فماذا تظنه سيدفع

يا أستاذي افانوفيتش ؟ »

« لست أدري كم سيدفع ، ربما دفع روبلا يا ايميليان اليتش . »
في حين إنني لو أخذته لما دفع مليا واحدا ، بل لضحك مني لاحضار
مثل هذه الأسماك ، ولكنني قلت ذلك لمواساته فقط .

« ولكنني كنت أفكر يا أستاذي افانوفيتش أنه دفع ثلاثة روبلات ؟
إنه مصنوع من القماش يا أستاذي افانوفيتش . فكيف سيدفع روبلا
واحدا لمعطف من القماش ؟ »

فقلت له : « لست أدري يا ايميليان اليتش . فإذا كنت تفكر في أخذه
يجب عليك أن تطالب بثلاثة روبلات . »
وصمت ايميليا فترة من الوقت ثم قال :

« أستاذي افانوفيتش ... »

« ماذا تريد يا ايميليا ؟ »

« بع معطفي حين أموت . لا تدفني به . فأنا أستطيع النوم من غيره
إنه شيء ذو قيمة وربما نفع . »

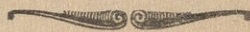
إنني لا أستطيع وصف الألم الذي أحدثه هذا الكلام في نفسي .
ورأيت أن الموت قد اقترب . وصمتنا فترة قصيرة . ومرت ساعة ،
فنظرت اليه : كان لا يزال ينظر إلى . وحين تقابلت أعيننا أنزل عينيه .
فسألته :

« هل تريد أن تشرب بعض الماء يا ايميليا ؟ »

« اعطني شيئا رعاك الله يا أستاذي افانوفيتش »
فأسقيته .

« شكر يا أستاذي افانوفيتش »
« هل تريد شيئا آخر يا ايميليا ؟ »
« كلا يا أستاذي افانوفيتش . لا أريد شيئا . ولكن أود .. أن .. »
« ماذا ؟ »
« انى ... »
« ماذا تريد يا ايميليا ؟ »
« سر اويلك ... لقد ... لقد ... أخذتهم أنا ... يا أستاذي افانوفيتش . »
فقلت له : « حسنا ، ليسأحك الله يا اميليا . فارقنا في سلام أيها
المسكين النادم . »
وكنت اهتز ياسيدي ، والدموع تنهمر من عيني ، فابتعدت قليلا
حتى لا يلحظ ايميليا بكائي .
« استاني افانوفيتش ... »

فالتفت ، ورأيت أن ايميليا يريد أن يقول لي شيئا ؛ كان يحاول أن
ينهض ، يحاول أن يتكلم ، ويغمغم بشيء ما . واحتقن وجهه فجأة ، ونظر
إلى ... ثم رأيت يصبغ ايضا مرة أخرى ، يبيض أكثر فأكثر ...
وخيل لي أنه غرق مرة واحدة .
ووقع رأسه ، وتنفس نفسا عميقا ، ثم صعدت روحه إلى بارئها .



انطون بافلوفيتش تشخوف

فانکا

انطون تشيخوف

ولد تشيخوف عام ١٨٦٠ في مدينة تاغنروغ التي تقع في أقصى بحر آزوف ، والتي كانت مسرحا لعدة معارك ابان الحرب الروسية الألمانية . وتوفي عام ١٩٠٤ ، أى قبل الثورة الروسية التي فشلت بعام واحد ، والتي كان لأدب تشيخوف أثر كبير في تركيزها ، وزيادة وعى الشعب الروسى .

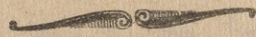
وكان جده لأبيه رفيقا للسادة تشرتكوف ؛ أما أبوه فقد تقلب في الوظائف والأعمال حتى انتهى تاجرا . وكانت أمه تنتمى إلى أسرة عريقة في التجارة .

وتشيخوف يعد عملاقا من عمالقة عصر النهضة الأدبية الروسية ، وهو طليعة جيل من الأدباء تأثر إلى حد كبير بتقدم العلوم والصناعة فاتجه الى القصة القصيرة بعد أن رأى أن القصة الطويلة لا تلائم روح العصر ولا تتفق مع التطور المبني على أسس السرعة والعلم . فأصبح تشيخوف لا من أئمة القصة الروسية القصيرة فحسب ؛ بل القصة العالمية القصيرة .

ويمتاز تشيخوف عن سبقه من أئمة الأدب الروسى أمثال دستويفسكى وترجنيف وجوجل وغيرهم ، بقدرته الغريبة على التحليل النفسى ، والوصول إلى أغوار النفس البشرية وتشريحها تشريحا صادقا حيا . مما يدل على فهم عميق واع للطبيعة الإنسانية .

ويرسم تشيخوف في كتاباته صورة كاملة لمجتمعه ، ولكن لوحته
ملبئة بالآسى والكآبة . وشخصياته كلها أناس أرهقتهم الحياة والبؤس ،
وفى الغالب أنانيون فرديون ، لا يعرفون معنى الأخوة والتضامن .
« إنهم قوم تعصرهم قبضة الحياة اليومية التي لا يستطيع أى مثل أعلى ،
وأية عاطفة مجردة ، مقاومة لها . » إن مؤلفات تشيخوف معرضا حيا
للتشاؤم والاستسلام للصير المحتوم .

وقصة الصبي « فانكا » صورة حيه لشخصيات تشيخوف البائسة
المرهقة التي لا أمل لها فى الخلاص . . . كما أنها تظهر فهم تشيخوف
العميق لنفسية الإنسان وتحليله الواعى الذى جعل من أدبه مدرسة عالمية
للأدب الإنسانى الواقعى .



فانكا

فانكا جوكوف ، صبي صغير في التاسعة من عمره ، مضت عليه ثلاثة شهور وهو يعمل أجيرا عند المعلم الياخين صانع الأحذية في موسكو . لم يستطع فانكا النوم ليلة عيد الميلاد ، بل ظل يتقلب في فراشه قلقا . وما أن ذهب المعلم وعائلته إلى الكنيسة مع الفجر ، حتى هب من فراشه وأخرج من خزانة معلمه دواة وريشة علاها الصدا ، وضعها على المقعد بجانبه ، وشرع يكتب .

وقبل أن يخط الحروف الأولى في رسالته ، نظر فانكا إلى الباب والنافذة في وجل وخوف ، ورمق صورة العذراء بطرف عينه ، وأجال نظره في رفوف الكتب التي وضعت على جانبي صورة العذراء ، وتهد بحرقه شديدة .

وابتداً يكتب :

« جدى العزيز كونستانتين مكاريتش : ها أنذا أكتب اليك هذه الرسالة لأهنئك بعيد الميلاد وأسأل الله أن يمد في عمرك ، فأنت كل ما تبقى لى في هذه الدنيا بعد أن توفيت أمى وأبى . »

وحول فانكا نظره إلى النافذة التي انعكس على زجاجها ضوء الشمعة المتراقص وسرح إلى الورا حيث رأى في مخيلته جده كونستانتين مكاريتش ، الذى يعمل حارسا ليليا عند السيد جيفاروف . وكان جده يبلغ من العمر الخامسة والستين ، قصير القامة ، ضامر الجسم ، لم تدب

الشيخوخة في نشاطه بعد ، بل لازال نشيطا رشيقا ، دأب الابتسام .
يقضى النهار نائما في المطبخ أو مداعبا الطاهيات . أما في الليل ، فيلتف
بفروته البالية ويدور حول المنزل ضاربا الأرض بعصاه ، يتبعه كلبان
تقدمت بهما السن . أحدهما يدعى كشتانكا ، والآخر فيون ، الذى سمي
بذلك الاسم لونه الأسود القاتم ، وجسمه الطويل الذى يشبه إلى حد
كبير ابن آوى .

وفيون هذا دقيق النظر ، قوى الملاحظة ، محبوب ، مدلل ، ذا سمعة
طيبة بين أقرانه . إلا أنه يخفى تحت كل هذه الوداعة حقدا وجبنا
غريبين ؛ ولا يوجد من هو أبرع منه فى التسلل إلى مكان الصيد حيث
تكون حاسة شمّه القوية قد ساقته ؛ وليس من هو أبرع منه فى التعلق
بأرجل الناس وعضهم ، وسرقة دجاج الفلاحين . وكثيرا ما عوقب على
أفعاله الشنيعة هذه ، حتى أنه كان يجلد أسبوعيا ، ثم علق مرتين من عنقه ،
ومع ذلك كان ينهض فيون وكأن حادثا لم يحدث ! ...

تخيل فانكا جده واقفا فى تلك الدقيقة عند باب المنزل منكشا على
نفسه من شدة البرد ، يضرب الأرض بقدميه فى شدة وعنف لعل الحرارة
تسرى فى جسده ، ناظرا إلى أضواء الكنيسة والقرية بعيونه الضيقة
وهو يداعب الطاهيات والخادومات وربما قرص إحداهن إمعانا فى
المداعبة .

وتخيله فانكا وهو يخرج من جيبه علبة النشوق ويعرضها عليهن قائلا:

— هل أخذتن شيئا من النشوق ؟

وتشم النساء شيئا من النشوق ثم ينفجرن عاطسات . وهنا يضحك

جد فانكا كثيرا وهو يصيح ضاربا الأرض بقدميه في شدة :

— أكاد أموت من البرد !

ثم يضع كونساتتين مكاريتش النشوق عند أنف السكبه كاشتانكا
التي تعطس بشدة ثم تلوى ذيلها بامتعاظ وغضب وتبتعد ؛ بينما فيون
يرفض أن يعطس ويحرك ذيله في نشوة وسرور .

وكان الجو حينئذ جميلا ، لا تعكر الرياح صفوه ، بل تهب من وقت
لآخر نسيمات هواء ندية منعشة ؛ والسكون نعيم ، والظلام يلف القرية
بين جنباتة ، إلا أنك تستطيع رؤية أسطح المنازل البيضاء والدخان
المتصاعد من مداخل البيوت المبعثرة في دروب القرية وشعابها . وحبات
الندى والصقيع المتجمدة على أوراق الشجر تلعب في ضوء القمر فيحسبها
الناظر وقد صبت من الفضة الخالصة ؛ والسماء تعج بالنجوم المتألثة
تتغامز في سرور وغبطة ؛ والطريق ممتدة واسعة مكسوة بالصقيع ،
بيضاء ناصعة فركت لتوها بالثلج .

وتنهذ فانكا وهو يغمس ريشته في المداد ، ثم تابع كتابته :

« لقد اقتادني المعلم بالأمس إلى فناء المنزل وانهاled على ضربا
بالكر باج لأنني غفوت عفوا وأنا أهن طفله . وحدث في الأسبوع
الماضي أن طلبت معلتي مني تنظيف سمكة لها ، فبدأت بتنظيف ذيلها مما
أغضب معلتي التي انتزعتني من يدي ودست رأس السمكة في فمي . أما
إجراء المعلم فبهزأون مني ورسلونني إلى الحانة لأحضر لهم الفودكا ؛
ويطلبون مني سرقة الخيار من بيت المعلم الذي يضربني بأي شيء يقع
تحت يده ولاقل هفوة تبدر مني .

« وأخبرك يا جدى أن المعلم يجوعنى ، فألا كل قليل وردىء ؛ إذ يطعموننى فى الصباح خبزاً ، ثم برغلا عند الظهر ، وخبزاً فى المساء . وأنا لا أذوق الشاى أو حساء السكرنب اللذيذ المقصور على معلمى ومعلمتى .

« أما نوحى فى الممر حيث البرد والصقيع . وإذا حدث واستيقظ طفل المعلم فى الليل كان على أن أهز مهده حتى ينام .

« إني استحلفك يا جدى العزيز بحق السماء ، وبكل عزيز لديك أن تأخذنى من هذا المكان السكريه ... إني أتوسل إليك را كعما ... فأنا لم أعد أطيق الحياة هنا ... أعدك بالصلاة لك دائماً إذا أخذتني ... أما إذا بقيت فإني سأموت يا جدى ... »

وهنا لوسى فانكافه ، وزم شفتاه بعصبية ، ثم مسح عيناه بيده القدرة وانفجر باكياً . وتابع كتابته :

« سأفرك لك يا جدى التبغ . وسأصلى لله أن يحفظك ، وإن خالفتك اضربني كما تضرب الماشيه ؛ وإذا طننت بأني لن أجد عملاً لديك فسأستحلف متعهد القرية أن يسمح لى بمسح حذائه ، أو سأرعى الغنم مع فيودا .

« أى جدى العزيز ، إني لا أستطيع التحمل أكثر من هذا ... إني على وشك الموت ... لقد فكرت فى الهرب من هذا المكان الفظيع ، إلا أن عدم وجود حذاء لدى يقينى صقيع الطريق منعى من ذلك . خذنى يا جدى واعدك أنى سأتعهدك برعايتي وسأتكفل بمعيشتك حين أبلغ سن الرشد ؛ وحين تموت سأصلى لروحك تماماً كما أصلى الآن لروح

أمى بيلاجيا .

« أما موسكو فهى مدينة كبيرة ، مليئة ببيوت السادة الفخمة ،
وخيولهم الكثيرة ، ولكن لا يوجد فيها خراف ، وكلابها وديعة
لا تؤذى . إن أطفالها لا يطوفون الأحياء ليلة عيد الميلاد يقرعون
نواقيسهم ، ولا يسمح لهم بالاشتراك فى الغناء بالكنيسة .

« ورأيت مرة صنانيرا كثيرة وعصيا لصيد السمك ، معروضة
للبيع فى واجهة إحدى المحلات التجارية ، وهى تصلح لصيد جميع أنواع
السمك حتى تلك التى يتعدى وزنها رطلا . كما رأيت مخازنا تباع البنادق
والأسلحة ، كبنديقة المعلم . وأغلب ظنى أن البندقية تكلف ما لا يقل عن
مئة روبل . ورأيت فى دكان القصاب كثيرا من الدجاج والطيور البريه .
والغريب أن القصاب رفض أن يقول من الذى اصطادها أو من أين
أتى بها .

« وحين ينصب يا جدى العزيز السادة شجرة عيد الميلاد ، أقطف لى
منها جوزة مذهبه واحفظها فى صندوق الأخضر ، وأما متأكد أن
السيدة الصغيرة أولغا ايغنايفنا لن تمنعك من ذلك إذا علمت أنها
لفانكا .

* * *

تهند الطفل مرة أخرى ثم نظر إلى النافذه وتابع ذكرياته . تخيل
جده الذى اعتاد الذهاب إلى الغابة كلما حل عيد الميلاد مصطحبا فانكا
معه . تخيل تلك الأيام الجميلة . يالها من أيام عذبه ! لقد كان يشعل
غليونه ثم يشم بعض النشوق وهو يضحك من فانكا المتجمد من البرد .

والشجيرات الفتيه المكسوة بالصقيع تقف في سكون وصمت حائر ،
لا تدري أيها ستكون الضحية . وفجأة يقفز أرنب برى مارا كالسهم
فيصيح جده :

— امسكه ... امسكه ... آه ! يا لذنوب الشيطان .

ويلوح بيده وراء الأرنب .

وحين كان ينهى جده من قطع الشجرة كان يجرها وراءه إلى بيت
أسياده حيث يجتمع الكل حولها منظمين مزينين ؛ إلا أن القسط الأكبر
في تزينها كان يقع على أكتاف السيدة الصغيرة أولغا ايغنايفنا ،
صديقة فانكا العزيزة .

وخلال حياة أمه بيلاجيا التي كانت تعمل خادمة في بيت السيد ،
كانت السيدة أولغا ايغنايفنا تعطف على الصبي فانكا فتملأ جيوبه
بالحلوى ، وتعلمه القراءة والكتابة والعد حتى المئة ... والرقص أيضا .
وحينما توفيت أمه حولت السيدة فانكا إلى المطبخ ليرعاه جده ... فأرسله
الآخر إلى موسكو ليعمل عند المعلم الياخين .

وهنا توقف فانكا عن متابعة ذكرياته ليتابع كتابته إلى جده قائلا :

« أتوسل إليك بحق المسيح أن تحضر سريعا إلى موسكو يا جدي .
أرحم حفيدك اليتيم الذي يضرب كل يوم ويكاد يموت من الجوع . إن
الحزن يكاد يقضى على فأنا دائم البكاء .

« ضربني المعلم منذ أيام بقالب الحذاء فوقع على الأرض فاقد
الوعي . ما أتعس حياتي يا جدي ... إنها أتعس من حياة الكلاب !
تحياقي إلى هيلينا وإلى يغور الأعور ، وإلى السائق ... وأرجوك

ألا تدع احد يأخذ من ماري . احضر يا جدى سريعا ! ودم الحفيدك
المنطيع : ايفان جو كوف . .

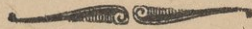
وهنا طوى فانكا الرسالة أربع مرات ووضعها فى مغلف كان قد
اشتراه الليلة السابقة بـكوبيك ، ثم غمس ريشته بالمداد وفكر قليلا قبل
أن يكتب على المغلف :

د القرية : إلى جدى . .

وحك فانكا رأسه وفكر طويلا ثم كتب : د كونستانتين مكاريتش . .
كان سرور فانكا عظيما لأن أحدا لم يزعجه خلال كتابته ، فوضع قبعته
على رأسه وخرج من البيت وقد نسي ارتداء معطفه المهلهل .

كان القصاب قد أخبره فى اليوم السابق أن الرسائل توضع فى صندوق
أحمر وترسل من هناك إلى جميع أنحاء الأرض على زحافات تجرها خيول
ويسوقها رجال البريد السكارى . فركض فانكا إلى أقرب صندوق بريد
حيث رعى رسالته الثمينة .

وبعد ساعة ذهب فانكا إلى فراشه مليئا بالأمل ؛ فنام نوما
هادئا عميقا ، ورأى فى منامه جده جالسا بجانب الفرن وقد خلع حذاءه
يحرك قدميه ويقرأ رسالة فانكا ، بينما يسير الكلب فيون جيئة وذهابا
محركا ذيله .



مکسیم جورکی

ستہ و عشرون رجلا و فتاہ

مكسيم جوركى

ولد مكسيم جوركى ، واسمه الحقيقي الكسى مكسيموفيتش بشكوف ، عام ١٨٦٨ فى بلدة نوفجورود — جوركى فيما بعد — وتوفى عام ١٩٣٦ . وكان أبوه صباجا فى بادىء حياته ثم أصبح صانع أشياء دقيقة من الخشب . وفقد أباه وهو لم يبلغ الرابعة بعد ؛ ثم أمه وهو فى الثانية عشرة ، فاضطر إلى العيش فى رعاية جده القاسى الطباع .

وخرج جوركى إلى ما « بين الناس » على حد تعبيره ، فى تلك السن ؛ وتقلبته به الحياة وتقلب بها ، فتارة هو اسكافى ، وتارة حمال ، وأخرى يلتقط الخرق فى الشوارع ، ثم أجير على مركب ، وغسال صحنون ؛ وفى كلمة واحدة كان جوركى صورة حية لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان . وكثيرا ما كان يقضى أيامه يفتش فى المزابل عن كسرة خبز يسد بها رمقه ، أو شبه عار يلف الأسماك على جسده الهزيل .

وجوركى لم يتخرج من جامعة ، أو يتشقف فى معهد ، بل كانت الحياة جامعته ، وكانت تجاربه أصدق معلم يتلقى عليه فنون الحياة وأساليبها . ويعد جوركى « أفضل وريث للأدب الكلاسيكى الروسى فى القرن التاسع عشر ، وأبو الأدب السوفياتى المعاصر ، وخالق مفهوم جديد عن الأدب والفن ، ألا وهو المذهب الواقعى الاشتراكى . »

ويمتاز جوركى عن جميع الكتاب الذين عرفتهم روسيا ، أنه أول من حقق فى أروع صورة وأكملها ، نظرية الأدب الاجتماعى الثورى . وقصة « مولد إنسان » قصة من صميم الواقع الذى عاشه جوركى وعاشه الكثير من أبناء روسيا ... قصة الإنسان الذى يولد فى عالم مرهق ... ينتظره مستقبل مجهول ... كله بؤس وألم ...

مولد إنسان

كان هذا عام ١٨٩٢ ، عام القحط والجوع — المشهد بقعة تقع بين سوخوم وأوتشنشيري ، على الضفة نهر الكودور ، على مقربة من شاطئ البحر . ومن فوق قمم الجبال اللامعة كنا نتميز هدير البحر العذب الممتزج بصدى أصوات عميقة بعيدة .

وكان الوقت خريفا ... وأوراق شجر الغار الصفراء تتراقص فوق زبد نهر الكودور الأبيض كأنها سمك سليمان الجليل ... وكنت أجلس على الصخور التي تملأ الضفة أنظر من علياقي إلى النهر وأنا أفكر بأن الحافز إلى صراخ طيور النورس والغربان بهذا الحزن والأسى ، وهي تطير بعيدا في الناحية اليمنى ، وراء الأشجار المرتفعة ، حيث يغطي الماء الشاطئ ، هو خيبة أملها وخطأها - مثلي أنا - حين تنقض على تلك الأوراق الصفراء التي تتراقص فوق سطح الماء ظانة إياها سمكا تأكله ، ولكنها كانت تبوء دائما بالفشل .

فوق رأسي امتدت أغصان أشجار الجوز وقد غطاها اللون الذهبي البراق ؛ وبالقرب من قدمي انتشرت مجموعة من الشجر تشبه أيد آدمية بترت من أرساغها . وعلى الضفة الأخرى واجهتني أغصان الشبور وقد خلعت كل ما عليها من ورق فظهرت وكأنها شبكة ممزقة معلقة في الهواء . وكان يمرح بين الأغصان نقار خشب جبلي ذو لون أحمر فاتح مشرب بالصفرة اللامعة . كان يقفز بسرور وانطلاق من طرف غصن إلى طرف آخر يصطاد بمنقاره الأسود القاتم بعض الحشرات الضالة التي أخذت من الأغصان مرتعا لها . وكان يساعده في التهام هذه الحشرات والقضاء عليها

نوع غريب من العصافير يعرف باسم سن المنجل يأتي إلى هذه المنطقة
من أقاصي الشمال وطيور خازن الجوز ذات اللون الداكن .

وإلى اليسار غطت الغيوم قمة الجبل منذرة بمطر غزير . أرسلت هذه
الغيوم ظلالها فوق منحدرات طويلة خضراء حيث يقف شجر خشب
البقس عالياً وحيث توجد أشجار الزان القديمة الغربية الغنية بالعسل
الذيذ ... هذا العسل الذي قرر في يوم ما ، أو بالأصح ، كان له أثر
فعال في تقرير مصير جيش بومبي المدجج بالسلاح ، فقد أعاقه عن المشي
واستعمال أرجله . ويصنع النحل البري هذا العسل من زهور الغاب ،
فيستعمله المسافرون في تغميس كعكهم الرقيق المصنوع من القمح .

وفي هذه المناسبة كنت أنا أيضاً - بعد أن لسعتني نحلة غاضبة - في
مجلسي على صخور الشاطئ تحت شجرة جوز - أغمس ما معي من الخبز
في قدح من الشاي ملأته بالعسل . وأتمتع في نفس الوقت بمشاهدة أشعة
الشمس الخريفية المتعبة وهي تحاول الظهور من بين السحب المتركمة .

تشبه بلاد القفقاس في فصل الخريف كاتدرائية عظيمة بناها عمال
عظام - والعمال العظام دائماً مثقلون بالخطايا والذنوب - ليخفوا ماضيهم
عن أعين الضمير الفاحصة المدققة . لقد قاموا ببناء كاتدرائية نفخة واجهتها
من الذهب والياقوت والزمرد ، وحليت جدرانها بالسجاد الفاخر الموشى
بالذهب والحريز ، قام بنسجها عمال من سمرقند وشيماها . لقد قاموا بنهب
العالم وسرقة خيراته ثم حملوا ما سرقوه إلى هذا المكان هدية وقربانا
للشمس . أجل لقد فعل الرجال هذا وكأن لسان حالهم يقول : « كل شيء
هنا هو ملك يديك ، أحضره شعبك خصيصاً إليك . »

وكالحالم رأيت عمالقة تفوق الإنسان طولا ، طويلي اللحي ، بيض
الشعر ، لهم عيون واسعة كعيون الأطفال ، يهبطون من التلال فيحرقون
الأرض ويبدرونها بنفائس السكنوز ، ويغطون رؤوس الجبال بطبقات
كثيفة من الفضة ، وأسفلها بشبكة حية من الأشجار الخضراء العظيمة .
أجل إنني أرى هؤلاء العمالقة وهم يزينون السكون ، وشكرا لعملهم ،
فإن السماء التي تعانق أرضنا المباركة أصبحت تفوق كل وصف في جمالها .
ما أروع أن تكون إنسانا ! ما أكثر الأشياء الجميلة التي ستمر أمام
ناظريك ! - وسيثير هذا الجمال في قلبك شعورا جميلا عنيقا كله غبطة
وسرورا ، شعورا يفوق في عنفه الألم .

حقا أنك ستجد الحياة في بعض الأحيان صعبة شاقة ، وسيمتلئ
صدرك بالحقد والكراهية الملتمة ، وسيملاً الحزن والأسى قلبك فيمتص
دمك بحقد وشراسة ... ونهم فظيع ... ولكن هذا لن يستطيع أن
يسيطر عليك إلى الأبد فلا بد أن يزول في يوم من الأيام ويصبح شيئاً
من الماضي ... وذكري من التاريخ ... إن الشمس لا بد أن تشعر
بالأسى والحزن وهي تطل علينا وتتفحص وجوهنا ... إنه بالرغم من
كل الجهد والتعب الذي تكبدته من أجل هذا الإنسان فإنه لا زال قزما
ممسوخا ... يقابل كثير صنيعها بتقليل من عنده !

كلا ... إن العالم لا يخلو من الناس الطيبين ... ولكنه محتاج إلى
إصلاح ما فسد فيهم - لترميمهم وصنعهم من جديد ... !

* * *

وفجأة ظهر خلف الأعشاب الطويلة النامية عن يساري جمع من

الرؤوس السوداء .. ومن خلال خرير ماء النهر سمعت أصواتا إنسانية ..
أصوات جماعة جائعة أو جماعة من المسافرين تشق طريقها من سوخوم
إلى أو تشنشيرو ليحصلوا على عمل في بناء الطريق التي يزمع إنشاؤها .

وعرفت أصحاب الأصوات هذه . عرفت أنهم مهاجرون من مقاطعة
أرلوف . لقد عملت معهم مؤخرا في إحدى الشركات ، واستأذنت في
المسير لوحدى ، بالأمس فقط ، حتى أسبقهم في المسير ليلا فأحيى الشمس
صباحا وهي ترسل أشعتها فوق البحر .

كان يتألف هذا الجمع من أربعة رجال وامرأة - امرأة صغيرة قد
برزت عظام وجهها ، وجسدها منتفخ من الحمل ، ذات عينين تميل إلى
الزرقة الممزوجة بالسواد ، تبدوان مليئتين بالخوف الممزوج بالحيرة .
وفي هذه اللحظة كنت أرى رأسها المغطى بوشاح أصفر يعلو فوق
الأعشاب الطويلة ، ثم يتمايل إلى اليمين ثم إلى اليسار كزهرة مثقلة بالبراعم
يدغدغها الريح بين حين وآخر ...

تذكرت في تلك اللحظة أن زوجها توفي في سوخوم من جراء تخمة ،
بأكل كمية كبيرة من الفواكه - لقد عرفت هذه الحقيقة من مقاسمتي لهم
الغرفة في ثكنات العمال في سوخوم ؛ وكعادة جميع الروسيين المسنين
كانوا يطلعونني على جميع ما تعترض حياتهم من متاعب . وكانوا يطلعونني
على هذه الحقائق بصوت واضح عال كان يسمع بلا شك عن بعد خمسة
أميال ... !

وعندما تحدثت إلى هؤلاء الناس التعساء ، هؤلاء الأدميين الذين
سحقهم الشقاء والالم خلعهم من بيوتهم وأراضهم وحملهم إلى هنا ، كما

تحمل الرياح أوراق الشجر المتساقطة في فصل الخريف . حملهم إلى القفقاز حيث أدهشهم الجو الرائع ؛ وقضت أحداث الحياة على البقية الباقية من شجاعتهم ؛ عندما تحدث إلى هؤلاء الناس الفقراء المساكين رأيتهم ينظرون حولهم بعيون ذابلة بلهاء خائفة ، عيون زائغة حيرى ، ثم سمعهم يقولون لبعضهم البعض والابتسامة تملأ وجه كل واحد منهم :
- يالها من بلد !

- أى ... أجل إنها ...! بلد تجعل الإنسان يعرق !

- إنها قاسية التربة كالخجر !

وبعد ذلك يتحدثون عن قراهم الأصلية ، حيث تذكرهم كل حفنة من التراب بشيء من بقايا أجدادهم .. وأجداد أجدادهم . وحيث سقيت كل ذرة من التراب من عرق جباههم ، فأصبحت قطعة عزيزة من الذكريات ...

وكانت ترافق الجمع امرأة طويلة ، مستقيمة الظهر ، ذات صدر مسطح كاللوح ، وفكين كفكي حصان ، ونظرات بليدة بلهاء ، وعينين واسعتين تشع كالنار المتوهجة .

في كل مساء كانت تذهب هذه المرأة مع زميلتها ذات الوشاح الأصفر خارج الشكنات فتجلس على كومة من العشب أمام كوخ متهدم ، تجلس القرفصاء وتسند خدها إلى راحة يدها ثم تميل رأسها جانبا وتبدأ تغنى بصوت غاضب عال :

« خلف جدار المقبره ... »

« حيث تنمو أعشاب طويلة خضراء »

« سأنتشر فوق الرمال
« جثة بيضاء كالثلج
« ولن يمض وقت طويل
« قبل أن يجيب حبيبي ...
« وسيدى ومولاى ...
« على صلواتى وتضرعاتى . »

وفى غالب الأحيان كانت رفيقتها ذات الوشاح الأصفر تجلس فى
صمت حانية رأسها إلى أسفل ، وعيناها عالقتان ببطنها . وفى بعض
الأحيان ، ومن غير أن تظار كانت تغنى بصوت مبسوح عميق وهى تحاول
إخفاء دموعها :

« يا حبيبي ومهجتي وفؤادى
« لن تقع عيناى بعد اليوم على عينيك . »

ولم يحدث أن فشلت أصواتهم التى تؤنس وحشة ليل الجنوب المظلم
السواد فى أن تعيد إلى ذاكرتى ذكريات صحارى الشمال المغطاة بالثلوج ،
والعواصف المدوية ... وعواء الذئاب الجائعة البعيد ...

وقد أصيبت المرأة ذات العيون التى تشع كالنار أخيرا بالحمى ،
فنقلت إلى المدينة على نقالة ميدان : وبينما هى تن وترتعش فى مرقدها
خيل لى أنها لازالت تغنى أنشودتها الصغيرة الحزينة عن المقبرة ...
والرمال !

* * *

ظهر الرأس المغطى بالوشاح الأصفر فوق الأعشاب الطويلة ، ثم غاص واختفى .

بعد أن أنهيت إفطاري غطيت ما بقى من العسل فى القدح بأوراق الشجر ، وأحكمت رباط حقيبتى ، وسرت فى طريقى أمشى فى بطن أقرع الأرض بعصاى السوداء تابعاً صحبى .

وامتد الدرب أمامى متعرجاً ، رمادياً ، ضيقاً بينما راح البحر يلهمث عن يمينى كأن آلاف من النجارين غير المنظورين يسوونه بآلاتهم ، والموج الأبيض يدغدغ الشاطئ فتطير حبات الماء من مداعبات الريح الحارة الندية ، ذات الرائحة التى تشبه أنفاس امرأة قوية البنية . . .

وقريباً من المرفأ راح يتهاذى زورق تركى متنفخ الشراع كخدى مهندس الطرق فى سوخوم المتنفخين . وقد اشتهر هذا المهندس بعجرفته وحبه الغريب لحبس الناس والقائم فى السجون . اعتاد أن يقول دوماً : « آخرس . . . وإلا ألقى بك فى السجن . . . »

وفى كل وقت كنت تراه يحرس شخصاً إلى السجن كنت تقرأ على وجهه آيات السرور والغبطة . . .

وكم اغتبطت لدى التفكير بأن الدود لاريب قد أكل جسده حتى العظام فى ذلك القبر الذى يقبع به .

كان سبرى سهلاً يسيراً : كما لو كنت أسبح فى الهواء ، وقد امتلأ صدرى بأفكار سارة تغنى برقة وعدوبة . . . وعادتنى ذكريات حبيبة متعددة الألوان ترقص فى عدوبة ونظام رامية الغطاء عن آمال الشباب الأمانة الغور البراقة التى تشبه سمكة فضية فى وسط المحيط . . .

و فجأة تعرج الدرب وهو ينحني نحو البحر ، فاقترب شيئاً فشيئاً
من اللسان الرملى الذى تحتضنه الأمواج وتتلاطم على صخوره بسرعة
غريبة عريضة كأنها تشور على هذه الحواجز التى تعيق تقدمها — حتى
الأعشاب الطويلة فى تلك البقعة كانت نائرة على الأمواج تنظر إليها فى
تحد وشدة - وكانت ثورتها من النوع الحبيب الذى يحتضن ويرحب بكل
جديد من ذلك المد الأزرق ، فينحني له ويقبله . ثم يعود فيثور ويغضب
ويعبس فى وجه كل قديم يتكسر تحت أقدام الصخور . .

وكانت الريح تهب من الجبال . . منذرة بالمطر والأدغال تئن تحت
وطأتها - أنه البشرى الذى ناء بحمل كاد يقصم ظهره .

* * *

ولكن لم كل هذا . . ! وارتفعت أنه خافته من بين الأعشاب -
أنة آدمية من النوع الذى يخترق حنايا الضلوع فيذكها !

وباعدت بين سيقان العشب على أرى . . فرأيت المرأة ذات الوشاح
الأصفر وقد جلست على الأرض مسندة ظهرها إلى جذع شجرة جوز
ضخمة . . بينما تدلى رأسها على كتفها ، فاعرة فاهما فى هلع . . وعيناها
تنظر أمامها بحيرة ووجل . . تشد على بطنها المنتفخ ، وبطنها يرتجف
بعنف تحت هزات التنفس غير الطبيعى . . بينما هى تئن فى وحشية مظهره
أسنانها الصفراء الشبيهة بأسنان الذئب .

انحنيت عليها وسألتها :

- ما الذى حدث ؟ هل آذاك أحد ؟

فأجابتنى بحك قدميها بالرمال كقطعة تحاول تنظيف نفسها وحركت

رأسها بشدة وهي تلهث وقالت :

- أبتعد أيها الشؤم .. أبتعد .. ألا تخجل !

وأخيراً فهمت ما حدث .. لقد سبق أن رأيت مثل هذا الحادث
ولكن في تلك اللحظة سيطر على شعور بالخجل والذعر
فتراجعت إلى الوراء .. وما أن فعلت ذلك حتى صرخت المرأة بشدة ..
وظهرت عيناها كجمرتين متألقتين خرجتا من محاجرهما .. فأنحدرت
الدموع على خديها المتوردين ..

وتقدمت منها ثانية .. وألقيت حقيقتي .. وإبريق بعيدا ..
ومددت المرأة على الأرض وحاولت أن أثني ساقها عند الفخذين فرمتني
بعيدا بضربة من قدمها على صدرى ... وتبعتها أخرى على وجهى ؛
ثم تكورت وزحفت على يديها وقدميها بعيدا وراء إحدى الأشجار
الكبيرة وهي تزجر وتهدر كدب جزيح ثم صرخت في وجهى قائلة :

- وحش .. حيوان .. يالك من شيطان !

وغانتها ذراعاها وهي تنطق تلك الكلمات فسقطت على وجهها وقد
مددت ساقها وبدأت عنها صرخة مضطربة .. وتبعتها أخرى .. وأخرى ..
تذكرت بسرعة ، وقد هزني هذا المشهد وتلك الصرخات المضطربة ،
كل ما أعرفه عن مثل هذه الحالات - فتقدمت من المرأة ومددتها
على ظهرها ثانية ، وحاولت كسابق عهدي أن أثني قدميها عند الفخذين -
كان الحبل السرى قد ظهر .. !

قلت لها :

- استلقي بهدوء .. فلن يطول بك الوقت قبل أن تضعي وليدك !

وركضت إلى الشاطئ، وشمرت عن ذراعي، وغسلت يدي، ثم عدت
لأبتدىء عملي كقابلة .

ابتدأت المرأة تتلوى على الأرض كقشرة شجرة يعبث بها الريح أو
كأوراق الشجر الملقاة بالنار، وراحت تضرب الأرض بقبضتها،
وتقطع العشب وتضعه في فيها .. ونثرت التراب على وجهها الصلب القاسي
الذي يشبه وجه وحش خرافي .. وجحظت عيناها بشدة وذعر،
وظهرتا باحمرارهما الداكن كعينين سكير عرييد .. وظهر الجبل السرى
أكثر فأكثر وتقدم رأسى الوليد ... واحتجت كل جهدي كي أثبت
ساقها حتى يخرج الوليد إلى العالم بسلام .. وحتى أمنعها من ازدراد
الحشائش .

وتبادلنا الشتائم بعض الوقت : هى من خلال أسنانها المقفلة
وأنا بصوت خفيض . هى من الألم ومن الخجل .. وأنا من حيرتى
الممزوجة بالشفقة والاضطراب .

تأوهت بشدة قائلة :

- يا إلهى !

كانت شفتاها زرقاء معضوذة مغطاة بالزبد، وسيل من الدموع
ينساب من عينيها اللتين خبا نورهما من أشعة الشمس .. وجسدها
الهزيل يتلوى بشدة كأنه سيقصم بعد قليل ..

وصرخت بشدة وهى تضرب الأرض براحتها :

- ابتعد أيها الوغد .. ابتعد أيها الشيطان !

وحاولت أن تدفعني بعيدا إلا أن يداها كانتا أضعف من أن تفعل ذلك .

فقلت لها :

- كفى حماقة .. حاولي أكثر .. بشدة .. وسينتهي كل شيء سريعا .
وكان قلبي ينفطر حزنا لرؤياها حتى أن دموعي بدأت تنساب على
خدي بتلك الغزارة التي تهطل بها دموعها .

ولم أكف عن الشعور بأنه يجب على أن أستمع صارخا في وجهها ،
وقد صرخت فعلا :

- والآن .. حاولي بشدة .. أسرعى قدر طاقتك !

* * *

وأخير - حملت بين ذراعي مخلوقا بشريا كله جمال فطري .. ولم
تمنع الدموع المنهمرة من عيني رؤية ذلك المخلوق - كان أحمر اللون ،
قائمة ، ومن تصرفاته البدائية وصراخه المستمر ورفسه بقدميه استطعت
أن أحكم أن هذا المخلوق الأحمر الضعيف غير راضى عن الوجود ...
ما أجمل عينيه ! كاتنا زرقاوين ، وأنفه الأفطس الصغير بدا معدوما
بين خدين منتفختين ورديين ، وشفتاه تتحركان باستمرار وهو يصرخ :

- وا... ع... وا... آ !

كان جسده ملسا رقيقا بحيث أنني حين اقتربت منه مبتسما بوضوئه
سالما إلى عالمنا كاد ينزلق من بين ذراعي . وقد نسيت ما يجب على أن
أفعله بعد ذلك !

وهمست الأم بعد وقت قصير بصوت واهن ضعيف وعيون مغلقة
ووجه منتفخ :

- اقطع الحبل .

ثم عادت وهمست ثانية :

- أقطعه بسكين ... أليس لديك سكيناً ؟

لم يكن معي سكيناً ... فقد سرق أحد العمال سكينتي في الشكنات
التي كنا نسكنها في سوخوم ... فأنحنيت على الوليد وقطعت حبل السرة
بأسناني ، واستمر الطفل يصيح ويصرخ وقد علت شفاه الأم ابتسامة
راضية وعاد إلى عينيها لونهما السابق فانتعشتا وأصبحتا كقطعتين من
نار صافية زرقاء . وبحشت يدها اليمنى عن جيبتها ثم قالت :

- ليس لدى قطعة من القماش أربط بها سرته .

لدى سماع هذه الكلمات قطعت شريطاً رفيعاً من ثيابي ربطت به
سرة الوليد ...

وابتسمت الأم ثانية وقد امتلأ صدرها بالغبطة والسرور .. وكان
سرورها جميلاً عنيماً يفوق في عنفه الشعور بالألم - فأذهلني هذا الشعور
القوى العجيب ، وقلت لها :

- استريحى قليلاً ... ريثما أذهب وأغسل الوليد !

فهمست بصوت عذب لطيف :

- أجل .. ولكن كن حذراً .. لطيفاً .

إلا أن ذلك القزم الأحمر - الذي رأى النور منذ لحظات لم يكن

ليحتاج إلى لطف أو حذر .. فقد رفس بقدميه وحرك قبضته كأنه
يدعوني إلى القتال .

فقلت له بصوت رقيق :

- مهلاً أيها الأخ ... لا داعي إلى هذه الشقاوة ... وإلا حطمت
رأسك !

وما أن شعر هذا القزم الأحمر بمياه البحر وهي تدغدغ جسده حتى
بعث صرخة شرسة عالية كلها احتجاج وغضب ... واستمر في صراخه
ذلك ، والأمراج تداعب جسده الأحمر الصغير .

فقلت له مشجعاً :

- أصرخ عالياً .. هيا تابع صراخك من قمة رنتيك ! وليعلم الناس
والعالم أنك ابن أرلوف !

وعدت به إلى أمه . وجدتها مغلقة العينين تعض شفتيها كلما اتابها
نوبة من نوبات ألم ما بعد الوضع . وسمعت من خلال أنينها المتقطع
صوتها يقول لي :

- أعطني ... أعطني .

فقلت :

- من الصواب أن تنتظري قليلاً !

- كلا ... أعطني ... أعطني الآن !

وبأيد مرتجفة فككت أضرار قميصها وساعدتها على إخراج ثديها

الذى وهبته الطبيعة قوة تكفى لتغذية عشرين طفلا على الأقل . وضعت
القرم الأرلوفى على صدرها ، ففهم بسرعة فائقة وكف عن الصراخ والعويل !
قالت الأم بصوت خافت وهى تعبت برأس وليدها بأيد مرتجفة :
- أيتها العذراء الطاهرة . . يا أم الإله !

ثم توقفت عن الكلام وأخذت تن بصوت ضعيف كصوت إنسان
فى بئر . . وفتحت عينيها الجميلتين ، عينين غائرتين لأم انجبت ، فوهبت
العالم منذ دقائق مخلوقا جديدا كله غضب . . وعدم رضى . . ورفعت
عينيها إلى السماء الزرقاء تشع منهما ابتسامة عذبة كلها شكر وامتنان !
وببطء رفعت الأم يدها ورسمت علامة الصليب فوق المخلوق الذى كان
يتمتع ثديها بنهم . .

قالت :

- شكر آلك يا أيتها العذراء الطاهرة . . يا أم الإله !
وذهب النور من عينيها ثانية . . وشحب لونها مرة أخرى . . وعتمت
فترة طويلة خيل لى خلالها أن نفسها قد انقطع . . . ثم قالت بصوت
عميق رزين كمن يقرر حقيقة :

- أيها الشاب . . . حل رباط حقيبتى .
ففعلت وهى تنظر إلى بعيون صلبه ، وما أن انتهت من فك الحقيبة
حتى ابتسمت بخجل وقالت :
- والآن . . . ابتعد قليلا !

فقلت محذراً :

- على شرط ألا تزجى نفسك أو تتحركى كثيراً !

- حسناً لن أفعل !

وابتعدت قليلاً وفي صدرى كان يتأجج شعور فضولى متعب .. جنباً
إلى جنب مع شعور رقيق عذب ، كصوت الطيور الجميلة وهى تغرد
بعذوبة .. وكانت تختلط تلك الأصوات بخير البحر الدائم وتلاطم
الأمواج المستمر .. وخيل لى أننى حقاً أسمع أصوات عصافير مفردة .
وبالقرب منا كان يمر جدول صغير من الماء لصوته وقع حنون
كصوت فتاة تقص على صديقتها أخبار حبيبها ..

وفجأة ظهر رأس منغطى بوشاح أصفر فوق الأعشاب الطويلة ...
فصحت باستغراب :

- ما هذا أيتها المرأة ؟ يجب أن تستريحى قليلاً !

حقاً لقد كان مظهرها تعباً حتى أنها مالت على غصن شجرة تستند عليه
من الاجهاد ، وغاض الدم من وجهها ، وبان واضحاً السواد تحت عيناها .
وابتسمت ابتسامة باهتة حنونة وقالت وهى تشير إلى الطفل :

- انظر ! إنه نائم !

نعم ، كان ينام الطفل بهدوء .. إلا أنه لم يكن ليختلف فى نظرى عن
أى طفل آخر ... اللهم إلا فى اضطجاعه على كومة من أوراق الشجر
الصفراء التى لا توجد فى أرلوف .

ونصحت الأم قائلا :

- والآن ... اضطجعي قليلا

فاجابت بهزة عنيفة من رأسها وقالت :

- كلا ... يجب أن أجمع حاجاتي وأمضي إلى ... ذلك المكان ...

لست أدري ماهو ؟

- أتعنين أو تشنشيرى ؟

- أجل . أظن أن صحبي على بعد فراسخ من هذا المكان .

- ولكن هل تستطيعين السير ؟

- ستساعدني العذراء الطاهرة .

حقا ليس باستطاعتي أن أقول شيئا مادامت العذراء الطاهرة

ستساعدنا !

ونظرت إلى القزم الصغير ثانية ... ووجهه الأحمر القاني بين

الأعشاب ... والنور يشع من عيني أمه وهي تنظر إليه بحنان ورفق

ثم تحسست صدره بلطف ولعقت شفيتها .

وببطء جمعت بعض الحطب فأشعلت نارا وضعت أحجارا بالقرب

منها ووضعت عليها ابريقى وقلت :

- سأعد لك بعض الشاي يا أماه !

قالت :

- سأكون شاكرة لو فعلت ... إن حلقى ناشف كأرض يابسة !

سألها ثانية :

- ولم هجرك صحبك ؟
- لم يهجروني .. لكنني تركتهم .. فكيف تريدني أن ألد أمامهم !؟
- ونظرت إلى بنجل ثم رفعت يدها إلى فمها وبصقت دماً وابتسمت
- ابتسامة حيري باهته . فسألتها :
- أهذا طفلك الأول ؟
- أجل ... من أنت ؟
- إنني رجل ...
- أعرف أنك رجل ... ورجل بكل ما في الكلمة من معنى ...
- ولكن هل متزوج أنت ؟
- كلا ... لم أستطع الوصول إلى هذا الشرف !
- ولكن هذا مستحيل ! إنك تكذب ...
- كلا ... إنه الصدق .
- خفضت عينيها ببطء وفكرت ثم قالت :
- ولكن من أين تعرف أمور النساء ؟
- وهنا اضطرت أن أكذب فقلت :
- لقد درست ذلك ... إنني طالب طب !
- آه ! إن ابن كاهننا كان طالبة أيضاً ... طالبة في شؤون الكنيسة .
- حسناً ... ها أنت تعرفين الآن من أنا فاسمحي لي أن أذهب
- وأحضر بعض الماء .

وحنت رأسها لدى سماع هذه الكلمات تقبل وليدها وتستمع إلى
أنفاسه الحارة ، ثم قالت وهي تحول نظرها إلى البحر :

- أود أن أغتسل ... ولكنني لأعرف شيئاً عن الماء هنا .. أهو
حار أم حلو ؟

- إنها مياه عذبة - صالحة للاغتسال .

- حقا ؟

- أجل ... إنها دافئة ، فاذهبي واغتسلي .

- إنك أعلم بها مني .

واقترب منا حصان صغير صلب كله عظام ... اقترب منا بحذر وهو
ينظر إلى وجوهنا بعيون واسعة سوداء ، ثم صهل بشدة ، فرفع راحته
رأسه ودفع قبعته الفرو إلى الوراء ثم نظر إلينا بكسل ... وعاد فترك
رأسه يتدلى ثانية ... كأنه لم ير شيئاً !

قالت المرأة الأرلوفية بصوت هامس عذب :

- إن أهل هذا البلد قبيحوا المنظر ... لا يستطيع الإنسان النظر
إليهم !

وذهبت إلى الجدول ... وبعد أن غسلت وجهي ويدي ملأت
لمبريق من الماء المتصاعد البراق وخبره العذب وزججته العريضة تتناغم
وتراقص أوراق الشجر المتساقطة فوقه في سرور وانشراح ... ثم عدت
أدراجي ونظرت من خلال الأغصان ، فرأيت المرأة منحنية على الأرض ،

فوق الحجارة ... تنظر باهتمام حولها كمن يبحث عن شيء . فسألتها :

- ماذا حدث ؟

توقفت المرأة عن بحثها وقد ذعرت لسماع صوتي واحمر وجهها ، لست أدري إن كان من الغضب أم من الخجل . وحاولت باضطراب أن تخفي تحتها شيئا عرفته للتو ، فقلت :

- أعطنيه ، سأدفنه بعيدا

- ما الذي تقوله ؟ ! يجب أن يدفن أمام فرن

- هل سنستطيع بناء فرن هنا - في خمس دقائق ؟

- لقد كنت أمزح ... ولكنني أفضل ألا ندفنه هنا ، فلربما جاء

حيوان مفترس والتهمة ! ولكن يجب أن ندفنه ...

قالت هذا ثم أعطتني حزمة ثقيلة مبلولة . وما أن فعلت ذلك حتى قالت باضطراب وخجل :

- أرجوك محبة بالمسيح أن تدفنه في أعرق حفرة تستطيع حفرها ... أفعل ذلك شفقة بي وبابني .

فعلت ما طلبت مني . وعندما عدت رأيته قادمة من الشاطئ بخطوات غير ثابتة مضطربة ، وذراعها ممدودة أمامها ... وملابسها مبلولة حتى خصرها .. وكان وجهها يشع بنور غريب ... نور أشبه بنار قوية تضيء ليل الخريف المظلم ... وما أن ساعدتها على الانقرب من النار حتى قلت في نفسي وقد تمسكتني الدهشة :

- يا لقوتها ... إنها أشبه بشور منها يا إنسان !
وسألتني ونحن نتناول الشاي الممزوج بالعسل :

- هل انقطعت عن دراستك ؟

- أجل !

- ولكن لماذا ؟ هل من كثرة السكر ؟

- نعم يا أماء ...

- يا للشيطان ! إن وجهك مألوف لدى ... إنني أذكر أنني رأيته
في سوخوم ... كان ذلك على أظن ، في اليوم الذي كنت تتناقش فيه
مع مدير السكنات وتتذمر من الأكل وكميته . قلت في نفسي وأنا أستمع
إليك آنذاك : « لابد أن هذا الشاب الشجاع قد صرف كل ما معه على
الشراب . »

ولعقت العسل عن شفتيها المتفتحتين ثم نظرت إلى الأروفي الصغير
وهو ينام فوق الأعشاب آمناً ، ثم تنهدت ، وقالت :

- رباه ، كيف سيعيش ... ؟ لقد ساعدتني ، وأنا أشكرك من صميم
قلبي ... ولكنني لا أدري إن كانت مساعدتك لي قد ساعدته هو !

وأكلت قطعة من الخبز وهي تشرب ما تبقى في قدها من الشاي ،
ورسمت علامة الصليب ... ورحلت أجمع حاجاتي بينما جلست هي تأرجح
نفسها ، وتئن بلطف ، وتنظر إلى الأرض بعيون مدققة فاحصه كان يشع
منهما نور وهاج أزرق ... وأخيراً نهضت ، فقلت محتجاً :

- إنك لست ذاهبه ؟ اليس كذلك ؟

- إني ذاهبة ... يجب أن أذهب !

- ولكن ...

- العذراء الطاهرة ستساعدني ... أرجوك أن تعطيني إياه .

- كلا ... سأحمله أنا

وتناقشنا طويلا حول من سيحمل القزم الأحمر الصغير .. وأخيرا
رضخت وقبلت أن أحمله أنا ... وسارت بجانبني ثم قالت ضاحكة بخجل
وقد وضعت يدها على كتفي :

- أمل ألا أقع على الأرض ..

راح المواطن الروسي الجديد ، ذو المستقبل المجهول ، يشخر بصوت
عال وهو مضطجع بين يدي ؛ ومن حولنا كان البحر يزجر وتتحطم
أمواجه على صخور الشاطئ بشدة فيتطاير رذاذ الماء الأبيض الشبيه
بقطع الفضة ، بينما كانت الأعشاب تتهاوس ... والشمس - تحينا بأشعة
دافئة وهاجة وهي منتصبية في كبد السماء .

وسرنا ببطء وقد علا البشر وجوهنا ... وبين حين وآخر كانت
الأم تتوقف فتأخذ نفسا عميقا وتستعرض البحر والغابات والتلال ..
ثم تنظر الى وجه طفلها . وكانت عيناها تمتلئ بدموع الألم ... إلا
أن تلك الدموع لم تستطع أن تحجب الصفاء الجميل الذي يحل عينيها ..
والنور الأزرق .. نور الحب الذي لا ينتهي الذي كان يشع من عينيها .
وتوقفت مرة ونظرت حولها ثم قالت :

- رباه ! يا أم الإله الطاهرة ... ما أروع الحياة ... لو كان بإمكانى
أن أسير هكذا دوما ... أجل ... أسير وأسير إلى نهاية العالم ! وكل
ما أريده أن أرى ولدى ... ولدى الحبيب ينمو بحرية على صدر أمه ..
حتى يشتد عوده فيصبح باستطاعته مقارعة أحداث الحياة !
واستمر البحر يهدر ... عاليا ... وأواجه تتقدم إلى الأمام ...
استمر يهدر ويزجر بصوت حبيب !



سر جیف - تزنسکی

رجل لایموت

س . سرجيف - تنسكى

ولد تنسكى عام ١٨٧٠ فى إحدى قرى القفقاز وعاش وتربى هناك .
ومثله كمثل جوركى لم يتسلذ على أيدى أئمة العلم والفن ، بل كان من
« الناس » ، وتعلق بالقراءة منذ الصغر ، فكان يقرأ كل ما يقع بين
يديه من أدب ، إلى أن نهل منابعا كثيرة من الأدب العالمى .

وتأثير جوركى على تنسكى تأثير واضح للغاية فى الشخصيات التى
يرسمها تنسكى ، الشخصيات البسيطة التى تخرج « من بين الناس » لتتير
الطريق ، وتفتح الآفاق ، وتبث الايمان فى المستقبل .

وشخصيات تنسكى ، فى جميع قصصه التى وصلت إلى أيدينا ،
شخصيات لا تعرف التشاؤم والانحلال ، بل هى شخصيات ثورية
تؤمن بالفجر ، وتؤمن بالناس ، وتؤمن بأن النصر للنور حتى ولو طال
أمد الليل .

وحياة تنسكى لا نعرف عنها إلا القليل ، فلم يصل إلينا من آثاره
إلا النذر اليسير وذلك لعدم الاهتمام بترجمة قصصه الحية إلى اللغات
الأجنبية . ولعدم اهتمام المترجمين العرب الملبين باللغة الروسية بنقل
آثاره إلينا .

حقا ، ما أحوجنا إلى الإلمام بكل ما كتب تنسكى ، ما أحوجنا إلى
أدب إنسانى كأدبه .

رجل لا يموت

حين يضرب الرجل رجلا آخر فإنه لا يفعل ذلك بمطلق ثقته واطمئنانه ، بل إنه يضربه في خوف وجبن ، ليس هذا فقط بل إنه حين يوجه إليه الضربة تلو الأخرى يخاف في الوقت نفسه أن يفاجئه الآخر بضربة غير منتظرة . يضرب الضحية بالقسم الأكبر من نفسه ، أما القسم الصغير الباقي فإنه يراقب ويزن ويتأمل .

ويهمس الصغير قائلا : كفى .

ويستمر الأكبر في الضرب .

ويهتف الصغير : كفى ... إنه جنون ...

ولا يبالي الأكبر بل يستمر في الضرب ، لكن بهمة أقل .

ويصرخ الصغير في النهاية : كفى ... إني أمرك .

وفي لحظة تتبدل الأحوال فيحتل الصغير مكان الأكبر ، ويتباعد الذي ضرب وعلى وجهه آمارات الظفر والفخر ، بينما أعماقه تحس بالحزى والحجل ...

هذا ما يحدث للفرد ، ليس للجماعة . فالجماعة لا تعرف الشعور الرقيق ، وهي إذ تصرخ ، إن صرخت ، لا تصرخ إنما تحاكم ، وهي لا تقبل النقاش بل تأمر ، وإذا ضربت فإنما تعاقب ، وكل من تضربه الجماعة يعلم أنه لن ينهض مرة أخرى .

وفيودور — فيودور تيتكوف ، أحد فلاحي قرية أورينسكايا في القفقاز كان يعلم ذلك .

كان قصيرا ، غريب الملامح ، ضامر الجسم ، يضاف عليه وجهه المشرب
بالحمرة جوا من الثقة . ولم تكن عيناه الضيقة في محجريهما ، بل كانتا
ترقدان وكأنما تستريحان لأجل طويل . ومع كونها كذلك فقد استطاع
أن يرى النور ، كما فعل رفيق آخر ، مانولاتي ، غجرى من الصرب ،
في وجهه آثار جروح عميقة ، ورفيق ثالث ، كارافانتشينكو الاسكافي في
بلدة أخثيركا ، ورفيق رابع ، سيمون ، رجل حزين ساخر ، ذو صوت
عميق مرتفع ، وعيون تلمع ...

كان رجال القيصر قد قبضوا عليهم في القرية : وقيدوا أيديهم
وأرجلهم بالحبال ، وسألوم بحدة :

- ثوريون ؟

أجابوا بالحدة نفسها :

- أجل ثوريون .

ومد مانولاتي رقبتة وأضاف في إيمان :

- انتظروا... وستروا كيف سنصل إلى القمة وسيؤمن بنا الشعب .

وقادوهم إلى بئر ، ولم يصرخ في وجههم أحد أو يزرعهم إنما تصاعد
الغبار من أحذية رجال القيصر الثقيلة التي كانت تضرب الأرض في عنف
وشدة ، فغطس أحدهم ، وسعل آخر ، وبصق ثالث .

ووقفت نساء القرية يحملن أطفالهن وقد أخرجن ائداءهن يرضعنهم
على جانبي الطريق يشاهدن الموكب ويتفحص ما في داخل الغبار الذي
تثيره أحذية رجال القيصر الثقيلة .

لقد كان يتكوف في هذا المكان قبل أن يلقى عليه القبض بدقائق

يا كل سمكة مملحة . لكنهم لم يتركوا له فسحة من الوقت ليروى ظمأه .
فاعتقلوه هو ورفاقه ورموا بهم في مخزن للغلال .

وكان اليوم حارا شديدا القيظ ، وتيتكوف يهفو إلى قطرة ماء
واحدة ، وبينما كان يقترب من البئر كان يشعر بجميع عضلات جسمه
الضامر المتورم أن الجنود يقودونه إلى المكان الذي هو في حاجة اليه
تماما . وبحشت عيناه في لهف عن « الدلو » . وكان « الدلو » كبيرا واسعا
يصلح لأن يكون حماما ، وكان قد علق في مكانه بسلسلة حديدية يلسع
فوقها الماء الذي يبللها .

وأصبحوا بجانب البئر وكان الوعاء مملوءا إلى حافته . الظاهر أن
أحدهم قد سقى حصانه منذ دقائق ، ولما ملاً الوعاء مرة ثانية رفض
الحصان أن يشرب .

وحول البئر كانت الرمال رطبة ، ومن رطوبتها تصاعدت رائحة
الماشية .

واستقرت ذبابة كبيرة على خد تيتكوف ، وحك خده في كتفه
الأيسر ليطردها من غير أن يحول نظره عن الوعاء الممتلئ دقيقة واحدة .
وحين أمروا بالتوقف قال ببساطة دون أن يرفع صوته ولكن
بنبرات مسموعة خالية من التذلل :

- هيا بنا نشرب يارفاق .

وسمعه رجل واقف بجانبه ، ذو لحية حمراء ، ظهرت عروق
زرقاء على أنفه وتدلّت من تحت قبعته خصلات من الشعر بللها العرق ،
فأجابه ببساطة :

- إشر ب نخب انتصارك ...!

وبكل ما أوتي من قوة صفعه على خده الذى كانت قد حطت عليه
الذبابه وطردها منذ دقائق .

وفي نفس الوقت رآهم يطرحون رفيقه سيمون أرضا ، وخيل اليه
من قوة الصفعه أنه رأى رأس مانولاتى الأسود يطير فوق رؤوس
الجميع . وما كاد يلحظ هذا حتى خبطه شيء فى مؤخرة رأسه فجعله يقع
إلى الأرض على ركبتيه . وغغم بصوت واضح :

- هذه نهايتنا ...

وكالسلحفاة جذب رأسه فأدخلها بين كتفيه ، وضم رجليه ثم رقد
على وجهه فوق الأرض ، وأحس بالرمل الرطب يسيل شفثيه ، ورائحة
بول الخيول المتصاعدة من الرمل تملأ خياشيمه .

وحاول أن يخبى يديه المربوطتين تحته ، ولكن الحبل قاوم كل
محاولاته اليائسة .

واستمروا يضربونه فى صمت ، ولم ينقطع ضربهم إلا لفترات
قصيرة ، وكانوا يضربونه فى نشاط وحماس كأنهم يقتلون خنزيرا .

وكان تيتكوف يستطيع فى بادىء الأمر أن يحدد مواضع الألم فى
جسمه ، ولكن بعد مدة انتشر الألم فى جسده كله فاستحال عليه تحديد
المكان الذى يؤلمه أكثر . لقد كانت جميع عضلات جسمه تؤلمه .
واستمروا يضربونه ... وهو لا يفعل شيئا سوى أن يركز على أسنانه
ويبتلع مع ريقه قليلا من الرمل .

وشيئا فشيئا خفت صراخ سيمون ، وقال تيتكوف فى نفسه : لقد

قتلوه . وخبأ رأسه أكثر فأكثر بين كتفيه . ولكنه كان يسمع صوت
مانولاتي وهو يجاهد صائحا :

- سينتصر ... الشعب سينتصر ... سيصل رفاقنا إلى القمة ...
سينتصر ... وسنحكم قريبا ... قريبا ...

وفكر تيتكوف فيه : إن مانولاتي قوى ... سيحتمل ...
وسيحتمل كثيرا من العذاب .

ولجأة تلقى تيتكوف ضربة على ذراعه اليمنى . فسرى الألم إلى جذور
شعر رأسه ، وأعقبها ضربة أخرى على رأسه . ولم يعد يسمع صوت
مانولاتي أو أى شيء آخر .

* * *

وأيقظته الرطوبة ...

وكان مبالا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ...

ولم يستطع لأول وهلة تذكر ما حدث ... ومر وقت قليل فتذكر ..
تذكر البئر ، ورجال القيصر ، وكيف ضربوه . وقال فى نفسه : أنهم
رموني فى البئر .

ولكنه صلح خطأه بسرعة : ولماذا يلوتون البئر ، اليس عليهم أن
يطهروها بعد ذلك ؟

وفتح عينه اليمنى البعيدة عن الأرض فرأى مقدمة حذاء ضخم
تلتصق بأنفه تماما ، وفهم كلمات أحدهم الحائقة :

- إيه ... ماهذا الشيطان ، إنه لا يزال حيا !

وسمع صوتا آخراً :

- والفجرى ... لا زال يتحرك !

ولم يتركوا له فترة من الوقت يحلم فيها أن رجلاً من زملائهم قد حضروا لإنقاذهم بل ارتطم مقدم الحذاء فى صوت مكتوم بوجهه ، تحت عينيه تماماً .

ومرة أخرى خفض وجهه ، وخبأ رأسه أكثر فأكثر بين كتفيه .

وصرخ صوت حائق لاهث بجوار مانولاتى :

- إضرب ... إضربه على رأسه .

وابتدؤا يدقون بأحذيتهم رأس مانولاتى ، ورأى بعينه رجلاً ثقيلاً عنخماً يقفر إلى أعلى ثم يدك بحذاءه رأس مانولاتى ، ويكرر هذا عدة مرات .

وشد تيتكوف على بطنه ولكن كعب الحذاء الحديدى مزق لحم ذراعه المكسورة ، وكسر السليمة عند المعصم . وسمع بأذنه صوت العظام وهى تطلق وتتكسر تحت خبطة الحذاء القوية .

وحاول تيتكوف أن يبيل شفتيه بلسانه إلا أنه غاب عن الوعي ...

ومرة أخرى صبوا فوقه ماء بارداً ، ومرة أخرى فتح عيناً واحدة - فقد كانت الأخرى متورمة لا تنفتح ، ومرة أخرى رأى مقدمة الحذاء الضخم ملتصقة بأنفه ...

وقلبوه على ظهره ، وأحس بذقن ذات شعر مدبب تقترب من وجهه ، وغمغم يقول للذقن :

- ماء ... ماء

وانفجرت أصوات مختلطة تصرخ في تنافر :

- إنه حي ...

- ياله من شيطان ...

- الآخرون ماتوا ولا يزال هو حيا .

- لعنه الله .

ورقد تيتكوف هكذا بضعة دقائق ، ورأى فوقه أجزاء من ذقون ،
 وأنوف حمراء متوردة وغمغم مرة أخرى :

- ماء ... أريد أن أشرب أيها الاخوان .

كأن من يطلب منهم غير الذين ضربوه منذ لحظات ، وكأن مهمتهم
 ليست ضربه حتى الموت :

ولطمته يد قوية أطاحت بأسنانه .

وتساءل واحد في دهشة ممزوجة بشيء من المرارة :

- يا للشيطان ... من أين له كل هذه القوة ؟

وبصق عليه .

ولم يُجدد شد تيتكوف على بطنه ، فقد أحسّ بالكعب الحديدى
 يندفع إلى أمعائه بقوة هائلة .

* * *

غسل رجال القيصر وجوههم وأيديهم ، وسعلوا بشده ، ونظفوا
 أنوفهم كما يفعلون كل صباح بعد القيام من النوم ، وبلل أحدهم شعره
 وسرجه بمشط صغير من الحديد أخرجه من جيبه ...

وتقدمت الفلاحات والأطفال بين أيديهن ينظرن !

كان اليوم قد انتصف ، وانتصبت الشمس في منتصف السماء
كوحش ضار ، تلفح الوجوه ، حين رحلت عربة يجرها جوادان بعيدا
عن البئر والقرية ، وفيها الأجساد الأربعة . وبجانب العربة سارجنديان ،
ومسدسهما يلعبان تحت أشعة الشمس .

وقتح تيتكوف ، وهو راقد فوق زملائه ، عينه فأغمته للتو لمعة
المسدسين ...

جنود ومسدسات — لقد رأهم قطعا قبل ذلك ... أما لمعان
المسدسات فقد بدا غير عادي ، فيه شيء لا يمت إلى الأرض بصلة .
ودفعة واحدة سرى الألم في جسده ، وشعر بالنار في حلقه وكل
عضو فيه .

ووعى كل شيء والخيل تقترب من قمة التل ، ومرة أخرى حاول
أن يتذكر ما حدث ، حاول أن يعرف ماذا حدث ، لماذا هو هنا ؟ ماسر
هذا الألم ؟

وبينما هو يتساءل سمع جنديا يقول لزميله :

- ها هو منحدر جميل ، سيطيرون فوقه مثل الغربان .

ورد الآخر :

- أجل ... هذا أنسب مكان ...

ولم يستطع تيتكوف فهم معنى ذلك ، وظل لا يفهم ... وجرته أربعة
أذرع قوية من العربة ، وكانت الشتائم واللعنات تهدر من حوله ، فتأوه

بصوت خفيض . ونظر بعينه الواحدة ، وأحس بالأيدي الممسكة به
تلين قبضتها ، وحين ارتطم بالأرض تأوه بشدة ، وسرى الألم إلى جميع
أعضائه كوخز الإبر ...

وعطست الخيول ، وهزت رؤوسها ، وحركت أرجلها في ضجر
وملل ، وتراجع الجنديان عشرين خطوة إلى الوراء في خوف وهلع .
وأرهف تيتكوف سمعه ، وحصر كل قواه في أذنيه على يفهم شيئاً ،
فسمع أحدهم يقول في غضب :

- وأنت أيها الشيطان الدنس متى ستموت ؟

وحول تيتكوف نظره إلى المتكلم ، أو هكذا خيل له ، فرآه يسحب
مسدسه ، ويصوبه نحوه ثم يطلق .

وارتجف تيتكوف ، وشعر بمسارحى يدق في صدره ، واخترق
صدره مسارح ملتهب آخر ... وثالث ... وكانت هذه الرصاصات من
الجندي الآخر .

وفتح فمه ، فتدفقت الدماء غزيرة ، وهز رأسه مرة ... وثانية ،
ثم هدأ ...

وشد الجنديان جثة سيمون المتخشب ، ثم طوحاها عدة مرات في
الهواء ، وقد أمسك واحد بقدمها ، وتشبث الآخر في رقبته ، ثم
قذفها من القمة ، وقذفا بعدها جثة العجري مانولاتي ، وقال واحد وهما
يقذفانها :

- هناك ستتتصر ... ستحكم في جهنم أيها الوغد .

وضحك ضحكة ساخرة وهو يسحب جثة الاسكافي ليلقي بها .
وحين جرا جثة تيتكوف إلى الحافة انتظرا قليلا ، ثم قال واحد :
- إفرض ... إفرض أن هذا الشيطان فجأة ...
فأجابه الآخر :
- أعتقد أنه حى ؟

ومزقا قيصه ليريا مكان الرصاصتين ، ووجم الجنديان وهما يريان
جسد تيتكوف وقد غطته الكدمات والسيجات والجروح والرصاص
مخترق صدره الأيمن .
وانفجرت أساريهما وهزا خصلات شعرهما ، ودفعاه من الحافة ،
وشاهدا جسده وهويلف ويدور ويلقى بجذور الحشائش من قدمه مرة ،
ومن رأسه مرة أخرى .
وأخيرا استقرت الجثة فى القاع ... بجانب زميلاتها .

وتقدم الليل ، وانحدرت الشمس نحو المغرب ، وابتدأت الظلال
والرطوبة .
وذهب ثلاثة نساء من مزرعة مجاورة إلى الوادى ليجمعن الحطب .
وكان معهن حبال ومدى ...
وحين تعثرت أقدامهن بالجثث هربن فى كل اتجاه خائفات . وبدرت
صرخة مكتومة من إحداهن ، ونظرت أخرى وراءها ، وأمسكت
الثالثة بصديقتهما . وأخيرا تحركن ناحية الجثث والواحدة منهن تدفع
الأخرى أمامها .

ونظرن وهززن رؤوسهن ، ثم جففن دموعهن بالمناديل . وقالت
واحدة :

- لا بد أنها متعفنه .

وقالت الثانية مستنشقة الهواء :

- أظن أنها حديثة .

وأجابت الثالثة وهي تضم يديها إلى صدرها :

- لقد كنت هنا بالأمس أجمع الحطب ... ولم تكن هنا جثث ...

وأضافت الثانية :

- ياترى ... أى متوحشون فعلوا هذا ؟

والجثة ، كما هو مفهوم من اسمها ، يجب أن ترقد في سلام
و ألا تتحرك . ومن المرعب أن تحاول جثة رفع رأسها مثلاً ، بل هذا
في حد ذاته يخيف أشجع الناس .

وحين فتح تيتكوف عينه وحرك رأسه ، صرخت النسوة وتدافعن
بعيدا وامتلا المكان بالكعوب البيضاء وهي تجري ، والأصابع
الدقيقة وهي تتعثر في الحشائش .

ولم يكديمر ربع ساعه حتى عادت النسوة ، وكل واحدة تشجع
الأخرى ، وسمعن همسة تقول :

- يافتيات ... شيء من الماء ... أرجوكن ...

وعلى مقربة من الوادى كان يجرى جدول صغير ، طالما شربت منه
النسوة ، ولكن لم يكن لديهن أكوابا وأوعية وإنما فقط حبالا

وسكا كينا . وعدون إلى الجدول .

ولاحظن فجأة قبعة من الخوص ملطخة بالدماء ، كانت منذ ساعات على رأس سيمون وحين ألقوه طارت عن رأسه . وغسلنها قدر ، طاقتهن ، وأحضرن الماء لتيتكوف ، ورمقنه وهو يتجرعه في عطش زائد . وشرب كل مافي القبعة ، وأجال نظره في النسوة واحدة واحدة وهو يتنفس بصعوبة وسألت إحداهن في همس :

- أيها الرجل ... من الوحوش الذين ضربوك هكذا ؟

لم يجب تيتكوف بل همس :

- يا عزيزاتي ... أريد أن أشرب قليلا من الماء ...

وكان الظلام قد انتشر حين حملت النساء تيتكوف وهو يتلوى ويتألم ، وكلما غاب عن وعيه توقفن في خوف ، ونظرن إلى بعضهن البعض في عتاب وتوبيخ ، وقالت واحدة :

- ألم يكن أفضل لو تركنا المسكين يموت في سلام ... بدلا من هذا العذاب ؟

الاأنهن تابعن حملة ، وفككن الحبال المربوطة حول يديه ، ثم اتجهن به الى مستشفى المدينة .

وخلال الطريق تابعن عتابهن ، وأقسمت واحدة بأنه لن يصل المستشفى وفيه رفق من الحياة ، وسينهب جهمدهن هباء ، وسيتعبن الحصان بلا طائل .

ولم تفكر إحداهن في بيتها ، فالرجال في المزرعة قليلون وليس

لإحداهن رجل .

وملأ السرور قلوبهن وهن يحملنه إلى المستشفى ... فهذا أقل
مايستطعن فعله ... وقلن لأنفسهن : ليموت في المستشفى إذا كان لابد من
موته . وشعرن بصواب هذه الفكرة ، فسيجد هناك العناية أو الدفن
اللائقين بإنسان .

وفي المستشفى سألوهن :

- من هو ؟ من ضربه ؟

وأجبن :

- من أين لنا أن نعرف ؟ لقد وجدناه هكذا في الوادي .

وقالوا لهن :

- ما الفائدة من إحضاره إنه سيموت في النهاية .

وردت إحداهن :

- إذا مات سيجد من يهتم به ويضع باقة من الورد على قبره .. ولكن
سنذهب الآن فعلينا أن نطعم البقر ويجب أن نكون في المزرعة قبل
الصباح .

وعادت النساء إلى المزرعة مع الفجر ...

تحس الأطباء في ذلك الصباح أضلاع تيتكوف المهشمة بنفس الهدوء
الذي هشمت به بجانب البئر في القرية ...

* * *

مر شهر ... وكانت عطلة ... والعمل قليل ... فاتجهت النساء الثلاثة

إلى المدينة يحملان باقة من الزهور البريه ليضعنها على قبر الرجل الذى
أطفأ عطشه وحملته من الوادى .

وحدثت أحداث كثيرة فى ذلك الشهر ، وعرف كل إنسان بقصة
الجثث ولماذا وجدت فى الوادى . ووجدت مخلوقات جدد لا تؤمن
بالقيصر وحكومته ...

كان ذلك اليوم يوم صيف ، وفكرت النسوة حين ابتدأن رحلتهم
عند الظهر بأنهن سيعدن فى المساء . ولم يكن لديهن أى عمل فى المدينة
سوى وضع باقة الزهور على قبر الرجل ، ثم العودة إلى المزرعة .

وسرجن جواديين قويين . وحين كانت أرجل الخيل تضرب الأرض ،
والعربة تتمايل فى سيرها تذكرت النسوة كيف سارت عربتهن منذ شهر
فى نفس الطريق وعليها الرجل .

وقالت ليوكيريا ذات العيون الذابلة وتبلغ الأربعين عاما :
- لا أظن أن أحدا قد حمل مشوها مثله ! لقد كان الهز كافيا للقضاء
عليه !

فأجابتها إكسينا ذات الحواجب السوداء المقوسه وتصغرها سنا :
- لم يكن بمقدورى إلا التلهى بسيور الحصان حتى لا تقزع عيناى
على وجهه المهشم .

وتذكرت ليوكينيدا ، أصغر الجميع سنا ، جميع ما حدث ، فقالت
والحزن باد فى عينيها :

- لقد كان مضجعا ورأسه على ركبتي طيلة الرحلة ، ولم أجراً على

التحرك حتى لا أزججه . ومع ذلك لا نعرف اسمه ، ياليتنا نعرفه !

وتابعت النساء رحلتن على هذه الحال ، وفي أيديهن باقة الزهر ؛ وعلى الجوانب امتدت حقول السادة ، ثم حقول الفلاحين ، ورأى آثار مجموعة من الرجال كانت قد عبرت هذه الحقول وقصفت في بعض الأماكن سنابل القمح .

وأرسلت الشمس أشعتها في ود ، وتصاعدت روائح من الأرض ، وفهمت النساء معنى الروائح المتصاعدة - أليست الأرض كجسد المرأة ؟ وفي السماء حلق صقر ، نقطة صغيرة زرقاء ، وردد الوادى صدى أصوات طائر الوقوق ، واستقر ذباب على ظهر الخيل ، وحركت ذيلها بشدة لتطرده فلم يؤثر ، وكفت عن محاولاتها تاركة للسيور أمر طرده . وكانت النيران قد اشتعلت في الأسبوع السابق في إحدى المزارع ، وشاهدتها النسوة ، ونظرن إلى المزرعة فرأى أكواما سوداء محترقة ومخازن الحبوب تملأ منها لونها الأبيض .

وقالت إكسينا وهي تشد اللجام :

- لا بد أن الماشية قد نفقت .

وقالت ليوكيريا وهي تعدل القش تحتها :

- لست أدري إلى متى ستبقى مشتعلة ؟

وقطفت ليكونيدا ورقة من باقة الزهر التي تحملها ، شعرت بأن لا لزوم لها ، ووضعتها بين شفتيها ، وقذفت بها إلى الطريق ثم قالت :

- مجانين ... نسوة مجنونات ... ما جدوى الذهاب ؟

وظهرت بيوت المدينة وقبابها من وراء الحقول الخضراء ، وقالت
الأخريات :

- لا بأس - ها نحن اقتربنا .

وقبل وصولهن إلى المستشفى مررن بالمقبرة الواقعة على يمين الطريق ،
وقالت كل منهن للأخرى :

- لو نعرف اسمه ! سننزل ونسأل الحارس فيجب أن يعرف أسماء
الموتى .

ووقفت الخيل ولما لم يجدن من يسألنه .

وسارت العربة فوصلت المستشفى في الساعة الثانية .

وعلقن الجياد وتركنها في الخارج ، وأخذت ليكونيدا باقة الزهر
معهما خوفا من أن يسرقها أحد المارة .

وتقدم الثلاثى والباقة معهن إلى فناء المستشفى يسألن عن قبر الرجل
الذى أحضرنه منذ شهر ، وعن اسمه .

يذكر بسطاء الناس دائما مرضهم ومرض من بقرهم خلال العطل -
وليس خلال أيام العمل .

وجالت النسوة في وسط ضوضاء فناء المستشفى والزهر في أيديهن
لا يعرفن من يسألن عن ضالتهن .

وهرعن إلى رجل بدين ذا مريول أبيض وسألنه فأجاب في حدة :
- ألا تميزن ! إننى الطباخ .

وقابلن رجلا آخر ، عارى الرأس هذه المرة ، يضع مريولا هو
الآخر ، ويحمل سطلا تفوح منه رائحة كريهة ، فاستمع اليهن وقال أنه

حديث العهد في المستشفى ، وحت الخطى مبتعداً .
والتفتن إلى امرأة تلبس حلة بيضاء وعلى ذراعها صليب أحمر ،
فسألتهن :

- ما اسمه ؟

وقالت النسوة :

- ومن أين لنا أن نعرف يا عزيزتنا ؟

ونظرت المرأة إليهن في دهشة وقالت :

- إذا لاتعرفن ، فما فائدة البحث ؟

وأسرعت مبتعدة تفرع الأرض بكعبها العالي .

وأوقفن رئيسة الممرضات العجوز يسألنها ، فلم تعرف ، وقادتتهن إلى
مساعد الطبيب ، رجل ذو شارب أحمر ، أجرد اللحية ، يلبس معطفاً
أبيض . نظر إليهن في دهشة وقال :

- تقبلن أنه توفي منذ شهر ؟ إنه من السهل قول ذلك ولكن البحث ..

على كل حال هل تعرفن شيئاً عن الأحوال هنا ؟ هل تعرفن عدد الموتى
يوميًا ؟ كلا لاتعرفن ولا تستطعن تصوره!

وقالت النساء في لهفة محاولات تذكيره :

- ولكن رجلنا قتل قتلاً .

ونظر إليهن مساعد الطبيب ثم قال :

- كل الرجال تقتل في هذه الأيام ... لا يوجد رجلاً حي ...!

ووعدهن بالبحث .

ونظرت النسوة على الخيل التي تركبها ، فوجدنها تأكل التبن ،
وتجولن في فناء المستشفى ، وزرن المطبخ ، وغرف الغسيل ، والمراحيض
(وليكونيدا لا تزال تحمل الزهر) وسرن إلى الحديقة ليجلسن فترة من
الوقت في الرطوبة ريثما ينتهى مساعد الطبيب من بحثه .

كانت الحديقة صغيرة لها ممران صغيران . وكان يجلس فيها عدة مرضى
على مقاعد صفراء يرتدون ملابساً بيضاء متشابهة . وكان أحدهم نائماً
على نقالة يقرأ صحيفة - نظرت النسوة اليه بتمعن - وجلس آخر فى
كرسى ذى عجالات ينظر إلى أوراق الشجر ... وكانت يده ورأسه
مربوطة برباط أبيض . وجلس اثنان آخران مع بعض أقاربهما ؛
وبجانب أحدهم جلست فتاة صغيرة تمتص بعض الحلوى .

وفى هيبة ووجل سارت النسوة جنباً إلى جنب فى إحدى الممرات
يتفحصن الناس بأعينهن ، مرة المرضى ... ومرة أخرى ملابس امرأة
جالسة ، ومرة ثالثة الطفلة ...

ومرت النساء أمام الرجل النائم ، وتفحصته كل على حدة ، ولاحظن
أصابعه الرفيعة - مثل القش - وتعجبن كيف يستطيع إمساك الصحيفة .
ثم نظرن إلى عيونه الحادة ...

ومررن أمام الرجل الذى يجلس فى الكرسى ذى العجلات ،
وتفحصنه : كانت عيونه واسعة غائرة ، وذراعه مربوطة إلى رقبته ...
ولاحظن شيئاً آخر ... لاحظن أن الكرسى تحت أشعة الشمس ،
وفكرن أنه أفضل لو كان فى الظل ! وابتعدن .

وكان من الصعب أن يبتعد الانسان فى مثل هذه الحديقة الصغيرة .

ووصلن إلى السور الأخضر فعدن أدراجهن ، ومررن بجانب الفتاة الصغيرة ، وأمام الرجل النائم ، ثم أمام الكرسي ذى العجلات .

ورفعن المناديل عن رؤوسهن ليستبردن . وكانت ليكونيدا لاتزال تحمل الزهر ، وحين اقتربن من الكرسي ذى العجلات قالت ليكونيدا بأسف وهى تنظر إلى الزهر :

- لقد ذبل من الحر .

ونظر المريض ذو الرباط الأبيض حول رأسه ، ويده المعلقة إلى عنقه ، اليهن فى اهتمام وهتف :

- هذا أنتن يا عزيزاتى !

وتوقفت النسوة بسرعة .

وأعاد الرجل فى فرح وسرور :

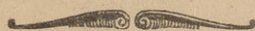
- أجل - هذا أنتن !

وصاحت النسوة بصوت سمعه جميع من فى الحديقة :

- رجلنا ... هذا رجلنا ! بحق الله أنه رجلنا ! نعم رجلنا ... انظروا

اليه وقد عاد إلى الحياة ونحن حاملات الزهور لنضعها على قبره !!

ولم يكن هذا منتظرا ، وكان رائعا لذيذا ، ولم تقو النساء على الوقوف ، بل ركنن بجانب الكرسي ذى العجلات يتأملن الرجل الذى لا يموت ...



الكسندر كوبرين

نفس آية

الكسندر ايفانوفيتش كوبرين

ولد كوبرين عام ١٨٧٠ في قرية من قرى أواسط روسيا من أن
تتري وتوفي عام ١٩٣٨

والتحق في شبابه بكلية الضباط في موسكو وتخرج منها ثم التحق
بالجيش عدة أعوام وخرج بعدها ليتقلب في عالم الوظائف والأعمال
إلى أن استقر كاتباً .

وعرف العالم كوبرين أديباً لامعاً في عام ١٨٩٦ حين أخرج قصته
« مولوخ » قصة تعالج حياة المصانع . وتتابع قصصه بعد ذلك ، الصراع ،
يا ما ، الحفرة . . .

وكوبرين يعد من أساطين الأدب الروسي الحديث ، كما أنه يعد
خليفة تشيخوف بلا منازع . فهو يتبع طريقة تشيخوف في التحليل
النفسي ، يصور شخصية في بضع لمسات ولحظات ، فإذا هي كائن حي .
ويصور أدق المواقف وأكثرها تعقيداً تصويراً وافياً ببضع كلمات .

فلقد اكتملت له القدرة الفنية في تصوير الشخصيات والمواقف
والبيئات . . . وكل ذلك في اقتصاد ووضوح ، والحادث الذي يوحى
للكاتب ما بالصفحات الطوال والروايات الطويلة ، يضعه كوبرين
في عدة صفحات .

وصفه ليوتولستوى فقال : « كوبرين هو الشخص الوحيد من
الجيل الجديد الذي يكتب في صدق وإخلاص . »

وشخصيات كوبرين يغلب عليها دائماً اليأس والقنوط، وكشخصيات
تشينخوف هدها البؤس، واعتصرت قلوبها أحداث الحياة، تنظر إلى
الحياة بمنظار أسود تشاؤمي.

وكما هي الحال عند دستوففسكي، تثقل على شخصيات كوبرين، كما
في قصة «نفس أبيه»، مشكلة الشروتزهاقه، فلا تجد لها خلاصاً في
المسيحية كما يشير دستوففسكي، بل في بعض الأحيان بوضع حد
لحياتها. وقد عزي أحدهم ذلك إلى تأثر كوبرين بالرومانطيقية وبكتاب
الغرب أمثال كيبلينج، وجاك لندن. وقصته «نفس أبيه»، ما هي إلا
تجسد واضح لتأثر كوبرين بالرومانطيقية.

غادر كوبرين روسيا قبل ثورة ١٩١٧ إلى أوروبا هرباً من الرقابة
القيصرية ومضايقات البوليس السياسي، وعاد إليها عام ١٩٣٦ فاستقبل
استقبالا حاراً، وطبعت كتيبه من جديد.



نفس أيّة

إن الذكريات والحوادث السحيقة التي تتصل بعهد طفولتي يخالطها كثير من الاضطراب ، كما أن للخيال فيها أثراً يفوق ما للواقع . ولكن من بين تلك الذكريات المتقطعة أستطيع بوضوح تبين صورة ذلك الشخص ياشا ورفيقه بل وصديقيه اللذين رافقاه . سنوات حياته : ما تسكو الجواد العجوز ، وبوتن كلب المنزل المدلل .

وكانت أبرز مميزات ياشا تباطؤه المتعمد في حديثه وأفعاله . كما كانت أفكاره تدور دائماً حول شخصه وتنصب على ذاته . وقليل ما كان يتحدث ، وإذا فعل فهو يزن كلماته التي يحاول نطقها في روسيه سليمة ينساها إذا أثاره الانسان . أما ملابسه الداكنه وتعبيرات وجهه الحزين ، فكانت توحى بأنه خادم لبית عريق من أسرات جيل سعيد سابق .

ومن بين كل المخلوقات التي عرفها ، لم يجد ياشا إلا واحداً يركن إليه ويجعله موضع إحترامه وحبه ، ذلك هو أبي . ولكن أخلاقه كانت موضع تقدير جميع أفراد عائلتنا .

ولا أستطيع إلى الآن أن أجِد تفسيراً لذلك الكبرياء الذي كان من خصائص ياشا الغامضة . فإن معظم الخدم يظهرون حقاً على جانب كبير من الوقاحة ، وربما كان ذلك راجعاً إلى محاولتهم تقليد أسيادهم . أما نحن فتوقعنا أن معيشة أبي المتواضعة الهادئة في قرية يهودية هو طبيعتها كفيلة بإبعاد الكبرياء عن نفس ياشا . ومع أن ياشا كان متكبراً

الا أنه لم يكن على شيء من الوقاحة . ولم يلجأ الى العجرفة في معاملته
لخادمت بيتنا الفلاحات .

وكان يقضى أوقات فراغه جائئاً في تكاسل واضح بجوار
صندوقه الخشبي الذي يحوى كل ما يملك ، ولم يحاول قط أن يقرأ
كتاباً لاحتقاره الشديد لكل ما يكتب ، مفضلاً الاسترسال في
أفكاره الغريبة التي يقبها ذهنه المشتت .

وكان الجواد ماتسكو قد ألقى خارج الخدمة العسكرية لعيوب
كثيرة أهمها كبر سنه ، مما حال بينه وبين أداء واجبه . أما بوتن فكان
مثال الحيوان الهادئ الرزين في المنزل ، ولكنه إذا غادره تعمد
الأيسير وراء عربة والدي ، كخيره من الكلاب ، بل يشتبك
مع أبناء جنسه في معارك حامية .

أما قريتنا ، فقد كان غريباً اتصاف كل ساكن فيها بحب الظهور
وبذل كل فرد جهده كي يبدو على جانب كبير من العظمة والزهو
ولم يختلف ياشا عنهم في ذلك . خاصة عندما كان يصطحبه أبى للقيام
بجولة خارج المنزل ، فتراه قد وضع على رأسه قبعة لامعة وتمنطق
بحزام عريض من الجلد الأصفر ، ثم أسرع إلى العربة الأثرية يعلقها
لظهر ماتسكو ، ويقف في انتظار أبى بعيداً عن المنزل ، حتى إذا رآه
قادماً قرع السوط وهو يندفع بالعربة تجاه الباب الكبير ، فإذا
حاذاه تظاهر بصعوبة جذب سيور الخيل ، وكأنما بالعربة ستة من

الجياذ، بل كان يستعير أحيانا جوارنا ليفسكي ويشده في عظمه واعتداد إلى جوار ماتسكو . ولم يكن ياشا يفعل ذلك إلا تأكيداً لأصل عائلتنا النبيل .

وكان ياشا يحمل لأبي تقديرأ غير عادي ، يديه للفلاحين واليهود اللذين كانت تجمعهم حجرة الانتظار بعيادة والدي ، حين يؤكد لكل واحد منهم أن أبي سيعرف داءه ، وسيعطيه الدواء الشافي أما عمله فكان حريصاً عليه ، أميناً يقظاً في أداء واجبه ، يعتقد تماماً بالألا أحداً يستطيع المواظبة على عمله والقيام به كما يستطيع هو . وفي إحدى المرات عنفه أبي لتخطيمه آنية ثمينة . فإذا به يعود بآنيتين اشتراهما بدلها وهو يقول موضحاً :

— ربما أحطم غيرها ، وعلى كل حال فنستطيع أن نستفيد من كليهما .

وتشاجر مرة مع ايفكا إحدى خادمت منزلنا ، وأدعى كل منهما تفوقه في تنظيف حجرات المنزل وتنظيمها ، وفي ذلك النهار دعينا نحن الأطفال كي نقضى بينهما — ولا غلظة ياشا أصدرنا حكماً في صالح فلانكا .

ولم ندر كأطفال أسرار النفس البشرية ، ولم يحل بخاطرنا فظاعة الطعنة النجلاء التي وجهناها إلى نفس ياشا الذي انطلق على أثرها خارج الحجرة صامتاً . وفي اليوم التالي علمت القرية من أقصاها إلى أقصاها أن ياشا قد ثمل — ولم يكن ياشا يندوق الشراب إلا مرتين

أو ثلاثاً في العام في أوقات حزنه العظيم أو حزن العائلة ، وحينئذ
لأنجد من يجمع الأخشاب أو يطعم الحصان أو يحضر لنا الماء .

وقد اختفى هذه المرة ستة أيام لم نسمع خلالها خبراً عنه ، ثم
ظهر فجأة في اليوم السابع في حالة تدعو للثناء . وكان يتبعه جمع من
رعاع اليهود يسخرون منه . وانفلت من بينهم ليصعد إلى المنزل ، ثم
عاد حاملاً بين ذراعيه محتويات صندوقه الخشبي يعرضها صائحاً
بأعلى صوته معلناً الأثمان التي يريد لها مقابل تحفه وملابسه . وكان
أبى يرقب ياشا واللصوص يغتصبون منه كل ما يملك فلا يستطيع
السيطرة على أعصابه . واضطر أن يتدخل لفض ذلك الجمع من
حول ياشا الذي كان يترنح من تأثير الخمر .

— سيدى ... سيدى ... أنظر ما فعلوه بى .

فجاءه صوت أبى يهدر في غضب :

— اذهب إلى الحظيرة .

وفي الحظيرة شعر ياشا بآلام التوبة العميقة المريرة ، ولكنه
كان على يقين أن أبى لن يغفر له فعلته الجمقاء .

وقاذنا حب الاستطلاع ، نحن الأطفال ، إلى باب الحظيرة
لنصغى إلى ما يدور بداخلها ، فلم نسمع إلا نحيب ياشا المتواصل .
ولم ينس السكب بوتن واجبه نحو صديقه البائس ياشا ، فجلس بجواره
يرسل تهدياته العميقة فتختلط بنحيب صديقه .

وفي اليوم التالي حضر ياشا إلى المنزل في الصباح الباكر وقام بتنظيف أرضه وأثاثه كعادته ، وانتظر مجيء أبي ، الإنسان الوحيد الذي كان يرتعش منه كلما ذكر . ولكن والدي لم يكن ممن يخذعون فسلم ياشا أجره وأمره بمغادرة المنزل في الحال . ولم تجد تضرعات ياشا . فقال :

— إذن ، فأنت تعني طردى ياسيدي . أليس كذلك ؟

— نعم وفي الحال .

— حسنا ، .. لن أذهب ، لن تستطيعوا الحياة بدوني ..

سأملك هنا دائما ... !

— سأستدعي البوليس :

— البوليس ! إن أهل القرية جميعا يعلمون أنني خدمتكم في

إخلاص عشرين عاما ، ثم أطرده بواسطة البوليس ... دعهم يأخذوني ... لن يلحق العار سواكم ياسيدي .

ولم يقض ياشا ليلته في المطبخ كعادته ، بل شارك ماتسكو اصطبله ، ثم أدى عمله في الصباح ، وما أتي المساء حتى كان والدي قد صفح عنه .

وعاد ياشا يبدو أنيقا من جديد ، لينال كعادته إعجاب الكثير من الفتيات — إلا أن ترفعه واحتقاره البارد للجنس اللطيف ، لم يشجع إحداهن على الابتسام له .

ومع ذلك ، فأنا أذكر جيداً تلك الحادثة التي أدهشتنا جميعاً .
دخل ياشا المنزل في إحدى الليالي ، وبرفقته امرأة في أسماها البالية ،
ناهزت الخمسين من عمرها تترنح سكرى ، وتقدم نحو أبى طالبا منه
أن يبارك زواجهما ، ولاحظت أبى في تلك اللحظة يحاول إخفاء
دهشته الطاغية ، ثم يصارح ياشا بعدم موافقته على زواجه
بمخلوقة كهذه .

— إذن فأنت لا تسمح لنا بالزواج ياسيدى ؟

— ليس هذا فقط ، بل يقينى بأنك لن تفعل ذلك .

— إذن ... لن أفعله ياسيدى ... هل تسمعين قول السيد ؟
اذهي في الحال .

وأمسك المرأة من ملابسها وجرها خارج الغرفة .
وكانت هذه هى الخطوة الأولى والأخيرة التي خطاها ياشا نحو
الزواج ، والتي ظلت سرّاً مغلقاً لم نستطيع اقتحامه .
ولم نكن نتوقع وفاة ياشا التي حدثت فجأة يكتشفها كثير
من الغموض .

سمعنا ذات يوم ، أن رجلاً مسافراً شقق نفسه في إحدى
دورات المياة بمحطة السكة الحديد ، فطلب ياشا من والدى أن
يأذن له بالذهاب لمشاهدة الجثة . وعاد بعد أربع ساعات ليجد
عندنا بعض الضيوف في غرفة المائدة ، فوقف بالباب متردداً
وسأله والدتى :

— ماذا هناك ؟

فانفجر ياشا ضاحكا وهو يقول :

— كان لسانه متدليا ... بأكملة ...

وفي الثامنة مساء اليوم التالى ، ذهب ياشا إلى حجرة شقيقى
الصغيرة وقبلها قائلا :

— وداعا ياسيدتى

ولم ترفع الصغيرة وجهها عن لعبها وهى تجيب :

— وداعا ، ياشا ...

— ولم تمض نصف ساعة حتى كانت الخادمة ايفاتهرول نحو

مكتب أى شاحبة مضطربة

— آه ... ياسيدى ... هناك ... فى المخزن ... شنق

نفسه ... ياشا

ثم وقعت مغشيا عليها .

وعندما استجوب المحقق الطاهية ، ذكرت غرابة تصرفات ياشا

يوم وفاته ، فقد وقف أمام المرأة ، واعتصر عنقه بيديه حتى أزرق

وجهه وجحظت عيناه وتدلى لسانه من فمه . كان يود أن يرى

كيف سيبدو .

وذيل المحقق الأوراق بحملته التقليدية . « انتحار فى حالة عقلية

مضطربة . »

وفي اليوم التالى لم نعثر لبوتن على أثر . فقد انطلق الكلب

الوفى إلى قبر صديقه الوحيد ، ينعاه بنباحه المتواصل ثم اختفى
ولم نعد نرى منه شيئا .

وإذ أستعيد الآن ذكرياتى العديدة ، فتحضرنى من بينها صورة
ياشا ، لا أملك إلا أن أرى فيها نفسا غريبة غامضة ، جمعت بين
الإخلاص والنقاء ، وتناقض الهزء والعظمة . حقا لقد كانت نفسا
سلافية أصيلة رفيعة .

كتب للمعرب

الفجر لنا نفذ

بالاشتراك

مع

راغب بركات

الشريد ...

دار النشر المصرية

ارکادی آفریشنکو

عید المیلاد

أركادى تيموثيتش أفريشنكو

أبتدا أفريشنكو عمله بكتابة قصص قصيرة بسيطة تشبه إلى حد كبير قصص تشيخوف وكوبرين ... إلا أنه كان يختلف عن كليهما باتبعه الأسلوب الساخر ... الفكاهى .

وقد أخرج بين ١٩٠٦ و ١٩١٧ مجلة أسبوعية أدبية أسماها « ساتير يكون » وأخرج فى هذه المرحلة عدة قصص ومسرحيات قوبلت بنجاح عظيم على مسارح بطرسبرج .

وما أن اندلعت نيران الثورة الروسية عام ١٩١٧ حتى هاجر أفريشنكو إلى أوروبا حيث أصدر كتاب : « اثنى عشر سكين فى ظهر الثورة . » ، وتوفى فى أوروبا حيث لم يسر فى جنازته سوى عشرة أشخاص ...

وأفريشنكو شخصية عجيبة فى تاريخ الأدب الروسى ... فمع سلاسة أسلوبه وسهولته لم يصل إلى المكان التى وصل إليها جوركى وتزنسكى وغيرهما . إلا أنه يعد من اللذين حطموا بقايا الرجعية الفكرية ... وحملوا لواء الأدب الجديد !

وقصة « عيد الميلاد » قصة طالما تعرف بأنها تمثل أسلوب أفريشنكو الساخر الفكاهى أصدق تصوير ...

عيد الميلاد!

كانت السماء قائمة مكفهرة ... الثلج يتساقط في كتل كبيرة فيغطي الأرض بثوب ناصع البياض ... والناس في حشد عظيم يملؤن الطرقات وقد علت وجوههم أمارات المرح والسرور ... والكل منهمك في شراء الحاجيات الضرورية لعيد الميلاد المجيد .

ووقف هياكن الموظف الحوقل ، خلف زجاج نافذته المغطى بالثلج ينظر في كآبة وحزن إلى الشارع المليء بحشد مختلف من الناس وطفرت من عينيه اللطيفتين البراقتين دمعة تدحرجت على خده فتهد في حرقة وهمس لنفسه قائلاً :

— رباه ! ما أروع هذه الليلة وأعظمها ، ومع ذلك فكثيرون هم الذين لا يملكون في هذه الليلة المجيدة سقفاً يأوون إليه ، ولا زاوية يلجأون إليها ، حتى ولا حلماً مبهما يرون فيه شجرة العيد مزينة بالدمى واللعب ! آه يا إلهي ! ليتني أفعل شيئاً مهما يكون ضئيلاً ، ليتني أحمل الدفء إلى بائس واحد على أقل تقدير ، ليتني أقدم إلى أربعة أو خمسة من الأطفال المحرومين شجرة ميلاد صغيرة تدخل إلى قلوبهم السعادة . إلهي ، أن عالمك هذا بارد شقي ، تعيس ، فلماذا يا إلهي هذه التعاسة ؟ ولماذا هذا الشقاء ؟ ..

ووضع هياكن قبعته على رأسه ، وارتدى معطفه الفرو وغادر المنزل ورأسه يكاد ينفجر بتلك الأفكار الحزينة التي تملأ

نفسه بالحنين .. الحنين إلى السعادة والسرور . وراح يستعرض الجماهير النابضة بالحياة وهي تمر أمامه وبجانبه كسيل عارم لا يتوقف . ووقف هياكن أخيرا عند زاوية أحد الشوارع ، وراح يتفرس في الناس ويفكر .

يا لهؤلاء القوم ما أكثر لا مبالاتهم ببعضهم البعض ! ... ليس بينهم من يهتم بغيره ولو مقدار ذرة ... يالأنانيتهم ما أفظعها بينهم مئات الجائعين .. وألوف المحتاجين إلى قليل من الدفء والحنان .. ومع ذلك فليس هناك من يهتم أو يكثرث ..

ووقف كلب بالقرب منه ، ودس أنفه بين قدمي هياكن ، وراح ينفض عن جسده الثلج وهو ينبج في لطف مستغيثاً من البرد ، فأنحنى هياكن عليه وقد تملك التأثير منه مقدارا عظيما وقال : — أيها الحيوان المسكين ! أيها التائه في هذه الشوارع ولا من يهتم بك أو يعتني بأمرك ، تعال معي فأقدم لك الطعام وأمددك على سجادة قديمة .

وصاح صوت حائق :

— مالك وكلبي بحق الشيطان ؟

وتقدم ضابط من باب إحدى المتاجر ، وقد احمر وجهه من الغيظ والغضب وراح يعنف الموظف المرتبك ، فقال هياكن في ارتباك وحيرة :

— كنت أود صحب هذا الكلب المسكين إلى منزلى فأدفاه
وأطعمه .

فزجر الضابط في شدة .

— حقاً ! إنك تريد أن تصحب إلى بيتك كلباً طويل الشعر ،
يساوى مائة روبلا . لذلك فأنت الذى تستحق الاصطحاب . وليس
إلى المنزل ، ولكن إلى أقرب مركز للبوليس .
ونادى الضابط الكلب وسار مبتعداً .

وراحت جموع الناس اللامبالين تمر من جديد أمام هياكن
لتختفى بعيدا بعيدا ولتحل محلها جموع أخرى .
وحت هياكن الخطى ، ولف فروته حول جسده المرتعش
وراح يفكر :

يا لهذه الريح المعرودة ، كأن آلافاً من أبالسة جهنم الغاضبة
قد عُن لها أن تحي حفلة معرودة شريرة ؛ كان الله فى عون كل
مسافر شاء سوء طالعه أن يقع تحت سطوة هذا الطقس المجنون .
إن الريح ستسلسل من خلال ثيابه فتجمد أطرافه . وعواء الذئاب
البعيدة التى تبحث عن فريسة تلتهمها سيتردد فى أذنيه وكأنه صوت
أجراس مآتمه .

وتصور هياكن ذلك المسافر المسكين وهو يناضل جاهدا حتى
لا يغوص فى الثلج وقال فى نفسه :
سوف يغوص المسكين فى الثلج حتى ركبته فى كل خطوة

يخطوها . ولماذا كل هذا ؟ لأن المسكين لا يملك من المال ما يمكنه من استئجار عربة تقله ، أو حصان هزيل يستطيع أن يوصله إلى غايته . لقد حكم القدر على هذا المسكين أن يحث الخطي منكشا في ثيابه حتى تدفأه ياقته الممزقة ..

وتدحرجت دمعته على خدها كن فمسحها بيده اليمنى وانحدر يسير في منعطف جانبي مقفر . ومر بجانبه رجل زرى المظهر يحاول جهده أن يلف نفسه جيذا في معطفه . ولم يستطيع هيا كن تحمل هذا المشهد الذي حز في نفسه ، فأسرع يلحق بعابر الطريق ، وحين اقترب منه دس في يده ثلاث روبات دون أن ينبس ببنت شفه ، وقال في نفسه : « ولكن لا بد أن أقول له شيئا .. » ، وتوقف الغريب عن المسير ، ورفع وجهه مذهولا من وراء ياقته ، وحمل طويلا في هيا كن قبل أن يقول :

— ما معنى هذا ؟

— لا بأس أيها الأخ ، فأنا أرى أن أمامك طريقا طويلا لا بد أن تجتازه ، وليس بإمكانك استئجار جواد يوصلك إلى غايتك - فأرجوك ألا تشكرني .. لقد فعلت ما بالإمكان . إن الحقول أيها الأخ فأمرها أشبه بالآف من الآبالسه .. وزجر الغريب غاضبا :

— كيف تجرؤ على هذا ؟ ألا تعرف من أنا أيها الصعلوك ؟ لا بد أن تقضى ليلتك في السجن ..

وفتح معطفه فظهر صدره وقد حلى بعدد كبير من الأوسمة
والنجوم التي يخطف بريقها الأبصار . فتمتم هيا كن متلعثما :
— انى ... انى آسف ... جدا

فصاح الغريب فى حنق :

— يالك من مخمور أجوف ... هيا ابتعد من هنا
وحت هيا كن الخطى مبتعدا ...

وازدادت الريح وحشية ، وراح ديسمبر يعلن للبلأ عن ذاته
بأشد ما عرف عنه من الزمهرير والصقيع ... وبرز هيا كن مرة ثانية
فى الشارع المزدهم . وفكر فى كآبة وحزن :

يال كثره هؤلاء الاطفال الذين يدعوهم الشاعر بأزهار هذا
الوجود . إنهم يجوبون الطرقات جياعا . يشخصون الى المأكولات
الشهية المعروضة فى واجبات المحال التجارية الضخمة ... ولكن
وا أسفاه ! فهذه الأشياء ليست لهؤلاء اليتامى فى أفراح الحياة .

ورأى طفلة صغيرة تقف أمام حانوت للحلويات عظيم المظهر
نخم الاثاث ، تتفرس فى شدة فيما تراه أمامها من أصناف الحلوى
الشهية ، نخيل إليه أن شيئا ما قد وقف فى حلقة ، واقترب من الطفلة
وغغم وهو يمسك بيدها :

— أيتها المسكينة الشريفة البائسة .. تعالى معى وسوف أطعمك
وادفئك ولكن البنت المذعورة ، راحت تصيح :
— أماه ... النجدة ... أماه

فانطلقت نحو الفتاة سيدة كانت تتفحص القبعات المعروضة في
واجهة إحدى المحلات المجاورة وهي تصيح في هيا كن
— اترك الفتاة أيها العجوز الدنيء... اتركها وإلا ضربتك
بمظلي... كيف تجرؤ على خطفها.

وسمع أحد الواقفين صراخاً فقال :

— حقاً... إن شجاعة هؤلاء الخطافين تفوق كل وصف...
إنهم يخطفون الضحية في واضحة النهار وفي الشوارع المزدحمة.
فقال هيا كن مدافعاً عن نفسه :

— أقسم لكم أنه لم يخطر على بالي أن أخطفها... بل كنت أريد
أن أويها في بيتي من الثلج والبرد.
فصاحت الأم :

— يا لك من وغد دنيء ! لا تستمعي إليه يا نادين... أسرعي
إلى هنا...

وتساقط الثلج كثيراً وصرصرت الريح أكثر فأكثر.. وانعطف
هيا كن مرة أخرى إلى زقاق جانبي مقفر... وحث الخطي على طول
الرصيف وهو يفكر :

لا بد أن أبعث السرور في قلب إنسان مسكين... فأخفف
من ألمه وبؤسه... ولكن الفقر الآتي... يفضل الاختفاء على الظهور
فيجب على أن أكون لبقاً ، مجرباً ، حتى أتعرف عليه ولا آذى
شعور إنسان !

ومر رجل طويل يرتدى معطفاً بنياً ، وقد تمنطق بجبل رفيع ،
يضع على رأسه قبعة أكل الدهر عليها وشرب . . وتفحص الرجل
وجهه هياكن . . وقال هياكن في نفسه : أخيراً لقد وجدت ضالتي .
ثم قال بصوت رقيق حنون .

— إن الجوردي يا صاحبي . أليس كذلك ؟
فقال الغريب موافقاً :

— أجل . . قبحه الله ما أبرده
نظر إليه هياكن ثانية ثم قال بلباقة :
— الظاهر أنك قد نسيت أن ترتدى ثياباً ثقيلة تقيك من البرد
ألا تعتقد أنني إذا أقرضتك عشر روبلات سيكون باستطاعتك
أن تتفادي هذا النسيان ؟

قال الغريب بلهجة غير مألوفة لهياكن :
— لا أعتقد أن هذا سيفيد . . من المستحسن أن تخلع معطفك
وتعطيني إياه .

فهر هياكن فمه من الدهشة وأخيراً استطاع أن يقول :
— . . ماذا . . ماذا سيحدث لي ؟
— ستأخذ معطفي القديم هذا . . أين روبلاتك العشرة . . لا
بل اعطني المحفظة والساعة . . ماذا تقول ؟ إنها ليست ثمينة ؟
أعطينها ، فهلوان مثلك لا يحتاج إلى ساعة
وزجرت الطبيعة أكثر فأكثر . . وتساقط الثلج في عنف .

وحت هيا كن خطاه ، ملتحفاً بالمعطف البالى متمنطقاً بجبل
رفيع . وقد برزت أصابعه من مقدمه حذائه . وهو يرتعش من البرد
وتقدم منه صبي صغير يلبس ملابساً نسائية ، وقد تسكور في
سيره من شدة البرد وقال :

— إمنحني صدقة محبة للمسيح .. من أجل العيد يا عمماه !

فصرخ هيا كن مزجرا :

— خذ .. خذ .. من أجل العيد أيها الشؤم ..

وطبع على وجنة الطفل قبلة عنيفة ..

لم يستطع هيا كن أن يقدم شيئاً يدخل السرور إلى قلب كائن
مسكين .. كل ما استطاع أن يفعله هو أن يظهر حناناً ثائراً غاضباً
أنعش الصبي الذي كاد يمود برداً ... فأسرى الدماء حارة في عروقه

ن. شبانوف

الرجل ذو المنظار

ن . شبانوف

شبانوف كاتب سوفياتى معاصر . ولد من أب فلاح ، وعاش وترعرع فى القرى .

وتفتحت عينها شبانوف على الحياة حين كانت الثورة الروسية الاشتراكية تجتاز مرحلتها الأولى . فوضع أدب جوركى وآمن به ، ونهل من قصص الكسى . تولستوى وسرجيف تزنسكى إلى أن يبس قلبه ، فانفجر يرسم الحياة بعد الثورة التى لم تسيطر عليها الكنيسة والاقطاع ، ولم يسخرها القيصر لأغراضه ، فإذا به تليذ يتتبع الكسى تولستوى فى إيمانه العميق الواعى بشعبه ووطنه .

وشبانوف يعكس فى جميع قصصه حياة مواطنيه السوفيت انعكاساً واعياً دقيقاً ، ولا سيما أحداث الحرب العالمية الثانية . فمعارك لينينجراد وستالينجراد والمقاومة الشعبية البطولية تحتل مكاناً رفيعاً فى أدب شبانوف . فهو يصور حياة الشعب الروسى وإيمانه القوى الذى لم يتحطم بحقه فى الحياة وفى تحطيم قوى الفاشية والنازية عدوة الشعوب .

وقد أمضى شبانوف فترة من حياته فى المزارع الجماعية ، لذا تراه يصف المزارعين وصفاً دقيقاً حياً ؛ يخيل إليك وأنت تقرأه بأنك تلمس شخصياته من المزارعين والفلاحين بيدك .

وقد اعترف الشعب الروسى بعظمة أدب شبانوف ، وقدر
قصصه البطولية من المقاومة الشعبية إبان الحرب العالمية الثانية .
فمنحه عدة جوائز .
وشبانوف يعد الآن من أئمة الأدب السوفياتى المعاصر .

الرجل ذو المنظار

ستفهم لماذا انتظرنا عودته بصبر نافذ ، وقلق شديد حين أخبرك بمهمته . لقد أمر بروخور بالهبوط بطائرته في خطوط الأعداء وإحضار قائد المقاومة وما تجمع لديه من معلومات عن الأعداء .

ومضى الوقت المحدد لعودة بروخور منذ زمن ولكنه لم يعد ، وأعيننا المتعلقة بالسماء بحثاً عن طائرته كانت ترتد خائبة . فلا أثر يوحى بقدمه . أجل يجب أن نعترف بالفشل ، ولكن من الحرام ألا يعود رجل مثل بروخور ، طيار ماهر ، خطاه الوحيد إقدامه الزائد المتناهي ، ولكن ألا ينبض في صدره قلب روسي حار . . . وقبل مطلع الفجر رأينا على حين غفلة ومن غير سابق انتظار طائرة بروخور وهي تحلق فوق أرض المطار . ولاحظت توهبوطه من الطائرة انحراف مزاجه . فقص على الكولونيل بصوت جاف مراحل تنفيذ مهمته ، ومن غير أن يجيب على أسئلة رفاقه اتجه إلى كوخه ، فتبعته صامتاً .

ولم يكلمني ، بل رمى بنفسه على الفراش من غير أن يخلع معطفه الجلدي أو يتفوه بحرف واحد . وأنت ألواح الخشب تحت ثقل جسمه مما جعلني أظن بأن الرحلة قد أنهكت قواه ، فقررت

أن أتركه وشأنه . وحين فتحت باب الكوخ باغياً الخروج وقع شعاع النور على وجهه فرأيت عينيه مفتوحتين ، معلقتين بنقطة ما ونظراته من النوع الذى لم أكن قد رأيته بعد ، نظرات وجلة حائرة فيها تساؤل حزين لا يجد له جواب . عدت إليه وجلست بجانبه على الفراش ، وإليك ما علمت منه :

جلس بروخور مع الفجر فى مخبئه كما أمر وانتظر قدوم الراكب الذى سيرافقه فى عودته . وانظر بروخور من غير جدوى ولم يعلم سبباً لتأخر قائد المقاومة . وجعل يفكر هل هو أخطأ فى تقديره وهبط فى مكان غير المكان المتفق عليه ، أم أن حادثاً حدث فأخر المقاوم عن الحضور .

ومضت ساعة . وتبعها أخرى ، وتقدم النهار ، وملأت الشمس الكون بأشعتها ، ولم يظهر للرجل أثراً . وقال بروخور فى نفسه : « لو أتى الرجل الآن فلن أستطيع الطيران ، فالشمس تملأ الكون والأعداء يحيطون بى . »

ونفض من مكانه نجياً طائرته بالأغصان قدر طاقته ثم عاد ثانية إلى مكان مراقبته بين الأعشاب . وأخيراً حضر قائد المقاومة . رجل قصير القامة ، ضامر الجسم ، يناهز الحلقة الرابعة من عمره ، له لحية مشعثة مدورة كالتى تنمو عادة من غير قصد ، يلتحف

بمعطف جلدى قديم ، أكل عليه الدهر وشرب ، يتدلى على أرنبة
أنفه منظار ثبت إلى أذنه بخيط رفيع .

ولم يكن فى شكله ما يوحي بأنه رجل عسكرى أو ما يدل على
علاقته بقصص المقاومة البطولية التى اشتهر بها . لقد اضطر
إلى التأخر عن الموعد بسبب الحاجة الماسة المفاجأة للتخلص من
هيئة ضباط ألمان حلت تلك الليلة بالقرية فى طريقها إلى الميدان .
ونجحت العملية ، ووجد قائد المقاومة فى حوزته كل ما يحتاج إليه
من معلومات فى الواقع محفوظة مليئة بالخرائط والأسرار .

أخرج الرجل ذو المنظار من جيبه محفظته ، محفظة عادية من
تلك التى يستعملها العمال السوفيت ، وفتحها فظهرت لأعين بروخور
مجموعة من الخرائط الألمانية ، فسأله بروخور :

— هل بإمكانهم اللحاق بك - إلى هنا ؟

— كلا .

وعاود بروخور سؤاله :

— هل بإمكانهم منعنا من الطيران ؟

فأجاب المقاوم بإيمان :

— كلا .

ثم تابع قوله بعد تفكير عميق :

— لا أحد يدرى بمكانى سوى امرأتى وابنى الصغير .

نظر بروخور الى الرجل بدهشة ثم قال :

— هل تعنى أنهم معك فى المقاومة ؟

فهز الرجل رأسه فى صمت ثم ابتسم وقال :

— إنها أمهر مساعدى وأنشطهم .

ولم يجد بروخور ما يقوله سوى « أجل ! » ثم تابع بعد صمت قصير :

— سنبقى هنا إلى أن يحل الغروب ثم نحلق عائدين ... ولكن

لم تقل لى ما هو عملاك ؟

فأجاب المقاوم باقتضاب :

— مزارع

ثم سأل :

— هل سنطير عند الغروب ؟

— أجل . كل ما نحتاج إليه شيء يسير من النور لنحلق ، وأما

الطريق فإنى أعرفها أتم المعرفة ، ولن نحتاج الى النور فى طيرنا .

قال المزارع :

— هكذا !!

وصمت طويلا قبل أن يقول وقد علت شفثيه الابتسامة الودية

التي لم تفارقهما أبداً !

— سيقفون هناك ، فى ذلك الطريق ليرونا نحلق .

ونظر بعينه الزرقاء الصافية الضعيفة النظر إلى الطريق المؤدى
إلى مدخل القرية .

ورقد بروخور وزميلة المزارع في صمت إلى أن مالت الشمس
إلى الغروب فاستوت والأفق ، وامتألت السماء بالشفق . فقال
بروخور .

— لقد حان الوقت .

ولم يتحرك المزارع بل قال بصوت آمر :

— أرقد في مكانك .

وتابع بنظراته الطريق حيث ظهر في الأفق شخصان ، امرأة
وطفل ، يسيران نحو الغابة ، فعرف بروخور فيهما زوجة رفيقة
المزارع وطفله .

ومرة أخرى تحرك بروخور وقال :

— هيا بنا يا صاحبي لقد حان الوقت .

فأجابه المزارع بذات الصوت الأمر وقد امتزج بشيء

من الغضب :

— لا تتحرك وارقد في مكانك .

فرقد بروفور بعد تردد قصير وتابع الطريق بنظراته .

ونجأة توقف الدم في عروقه . لقد أتت دراجات نارية من

ناحية القرية تنهب الأرض نهباً تريد اللحاق بالشخصين الذين كانا

على بعد عدة أمتار من العشب الذي اختبأ فيه بروفور وزميلة .

وأصبح من العبث الطيران ، بل أصبح يعد جنونا ، فضرب بروخور الأرض بقبضة يده في حنق وغيظ .

ولحق الألمان بالمرأة والطفل وهما على بعد عدة أمتار من مخبأ بروخور وزميله اللذين تمكننا مشاهدة كل حركة وسماع كل كلمة تفوه بها . وفحص بروخور المرأة بعينه فرآها قصيرة ضامرة كزوجها ، غطت أكتافها التي تشبه إلى حد كبير ضلعي الزاوية بمنديل ممزق بينما بقي رأسها بدون غطاء . أما الطفل الذي وقف بجانب أمه يتفحص الأرض بعينه . فقد علت وجهه الصفرة وبان عليه الضعف والهزال .

سأل أحد الألمان المرأة :

— أنت معلمة أليس كذلك ؟

فأجابت في هدوء :

— أجل .

— لقد حدث هجوم في مدرستك على الهيئة الألمانية .

قالت المرأة بصوت هادئ عميق :

— إنى لا أعيش في المدرسة .

ففقد الألمانى أعصابه وصرخ في وجهها قائلاً :

— أجيبي على سؤالى . ألم يقتل الضباط في مدرستك ؟

— أجل !

— لا بد أنك تعرفين من الذى ارتكب هذه الجريمة .

فلم تجب المرأة ، بل نظرت إلى أحد الجوانب في صمت كأنها تبحث عن الجواب هناك . وازداد حنق الألماني فتقدم منها خطوة وصرخ « أجيبى » وأجفلت المرأة كأنها تראה وتسمعه للمرة الأولى ثم أجابت بهدوء :

— لا أستطيع .

— إنك تستطيعين ، وعلى كل حال نحن نعرف كل شيء ...
فنظرت إليه في شك ثم قالت .

— إنك لا تعرف شيئا .

وهزت رأسها نافية تلك الفكرة ثم استطردت :

— لا شيء

ووضع الألماني يده في جيب سرواله الخلفي وأخرج محفظة ضخمة فتحها تحت أعين المرأة وقال :

— زوجك !

ولم تتفوه المرأة بحرف بل ابتعدت قليلا ، وفهم الرجلان في مخبئهما أن الألماني عرض عليها صورة زوجها .

وفي حركة سريعة قفز الطفل يريد اختطاف صورة أبيه من يد الألمان ، فضربه الأخير على يده بشدة جعلته يصرخ من شدة الألم . وهنا التففت الألماني إلى المرأة وأشار إلى الطفل قائلا :

— حسنا ، سيتكلم الطفل .

وهزه هزة عنيفة قائلا :

— سر أماننا .

وفقدت المرأة سيطرتها على أعصابها ، وغلب الخوف على
صوتها لأول مرة وهي تقول :

— لا داعي للطفل ، دعوه وشأنه فسأتكلم أنا .

وتحرك بروخور كمن لسعته أفعى ، ولولا يد المزارع التي
قبضت على ذراعه في شدة لقفز نحو الطريق المؤدى إلى القرية .

— إذن تسكلى واحفظى حياتك وحياة الطفل .

وأشار الألماني إلى الطفل .

— ولكنى ... لا أستطيع

— كفى تمثيلاً أيتها المرأة ، ليس لدينا من الوقت مانضيعة في

سخافاتك !

قالت المرأة بصوت خفيض سمعه الرجلان المختبئان بصعوبة :

— ولكنى لا أستطيع بحضوره .

وأشارت إلى الطفل ثم أردفت قائلة :

— إنه سيخبر أباه

فقال الألماني بإيمان غريب :

— إنه لن يخبر أحداً

وبحركة آلية تحركت يده فأخرجت من جيبه مسدساً ، فزع

له الطفل وحاول التعلق بأمه هاتفاً . « أماه »

ولكن لم يتحرك أو يتفوه بكلمة أخرى ، فقد استقرت ثلاثة

رصاصات في أحضانه أسكته إلى الأبد ، وخر إلى الأرض ملطخاً
بدمائه .

وشعر بروخور بيد زميله المزارع تتقلص على زراعته ، واهتز
جسمه في عنف ، ووقفت المرأة صامتة كتمثال من حجر ، مرفوعة
الرأس ، وقد تعلقت عيناها الزائغة بالشمس الحمراء الغاربة . وهنا
صاح الألماني :

— والآن تكلمي .

وطوحت المرأة بيدها ذات اليمين وذات الشمال كمن أنزل لتوه
عن الصليب ثم قالت بصوت مرتجف مبجوح :

— انكم وحوش ... وحوش ضارية ... كنتم ستسليمونه أشنع
أنواع العذاب حتى يتكلم ، ولكن هذا أفضل فقد مات ميتة سهلة بسيطة
وطأ طأت رأسها في يأس وتدلّت يداها إلى جوانبها كجناحي
طائر جريح ثم قادها الألماني في الطريق المؤدى إلى القرية !
وحين ابتعدت أصوات الدراجات النارية ، لاحظ بروخور
أنه لا يقوى على حراك يده تحت قبضة زميله المزارع الذي راح
ينظر إلى الأفق الأحمر بعيونه الزرقاء الصافية ، حيث ظهرت منازل
القرية بستوفها الصغيرة البيضاء .

ومع الفجر ، حلقت الطائرة تقل بروخور وزميله .

وقال لي بروخور :

— لو لم يكن الرجل الصغير ذو المنظار بجانبى لما استطعت

تنفيذ أوامر القيادة .

ثم أغض عيناه واستطرد :

— والآن دعني أنام .

وخرجت من السكوخ ، ولكن بروخور لم يتم بل ظلت عيناه
الواسعة معلقة بنقطة ما . تنظر في حيرة ووجل . .

استدراك

وقعت بعض الأخطاء المطبعية الخارجة عن إرادتنا يرجى القارىء
تصحيحها :

صفحة ١٠ سطر ٢١ : الخطأ

« وتسربت في هذه الآونة روح التشاؤم التقليدية في الأدب الروسى »
الصواب :

« وتسربت في هذه الآونة روح التشاؤم والانحلال طاردة روح التفاؤل
التقليدية في الأدب الروسى »

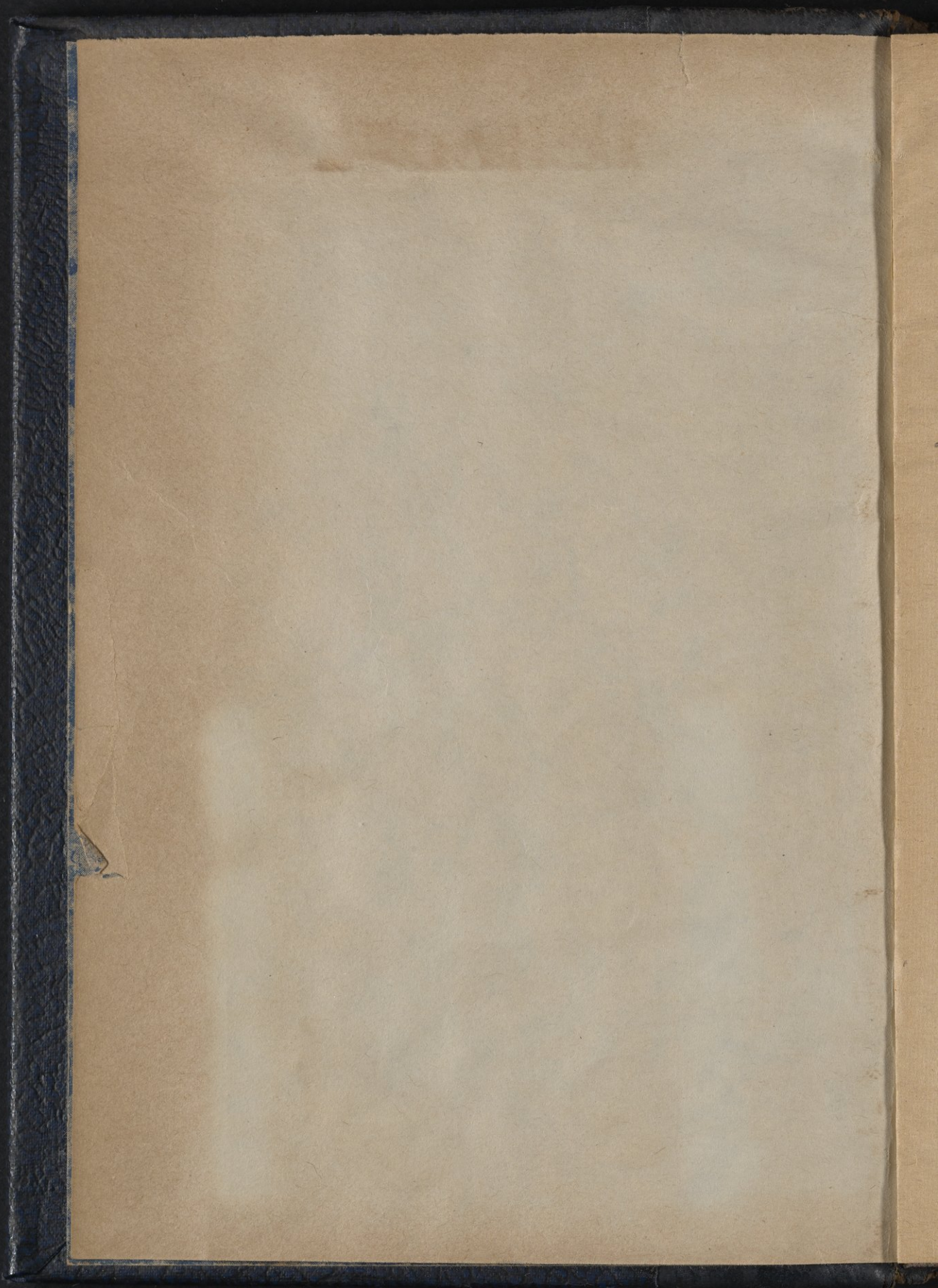
الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	١٥	إلا	إلا
٢٦	١	أن	إن
٣٥	٧	تعلق	تعلق
٤٢	٢٢	فيامكانى	فيامكانى
٥٢	٥	دفع	سيدفع
٥٥	٦	رفيقاً	رفيقاً
٦٠	١٣	يحفظك	يحفظك

B13208524
± 15055474

الفهرس

صفحة

دراسات في الأدب الروسي	١٥ — ٥
س . ت . سيمينوف	١٧
الشريد	٢٧ — ١٨
فيودور دستوييفسكى	٥٥
لص شريف	٥٣ — ٣٠
أنطون تشيچوف	٥٥
فانكا	٦٣ — ٥٧
مكسيم جوركى	٦٥
مولد انسان	٦٦
سرجيف تزنسكى	..
رجل لا يموت	..
الكسندر كوبرين	..
نفس أئمة	..
أركادى أفريشنكو	١٢٢
عيد الميلاد	١٢٣
ن . شيانوف	١٣٣ — ١٣٢
الرجل ذو المنظار	١٤٤ — ١٣٣



DATE DUE

3 JUL 1930



